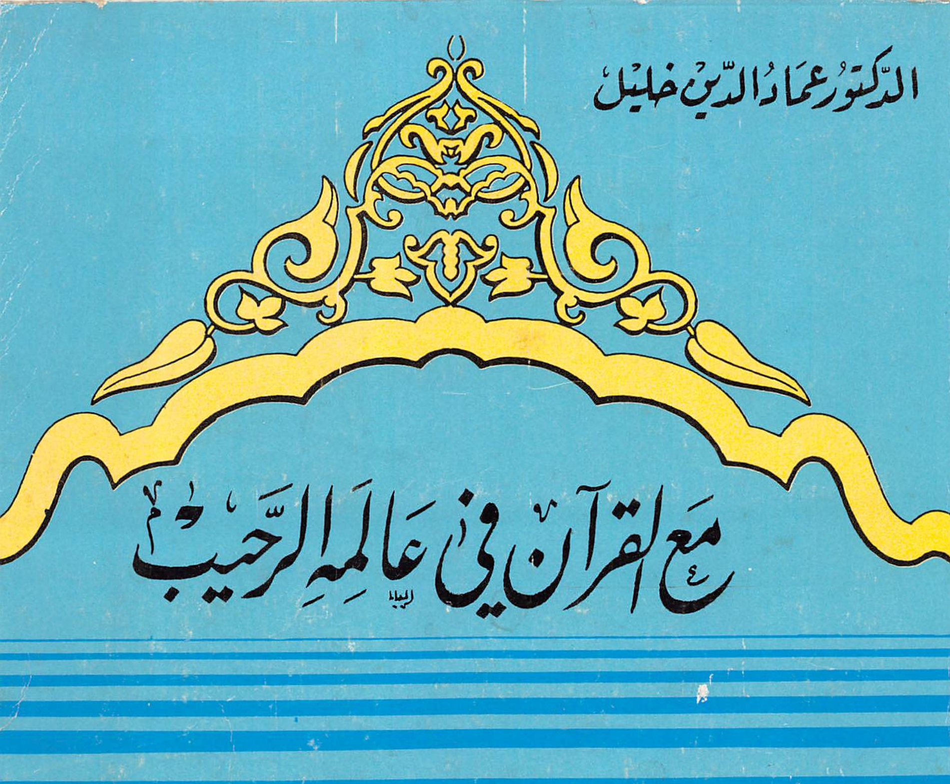
الدكتور عماد الدين خليل



مع القرآن في عالمه الرحيب

دار العلم للملايين

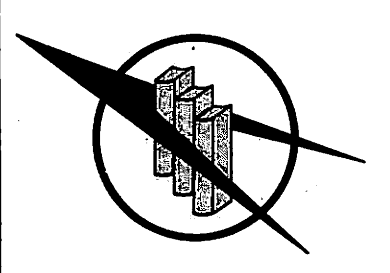
مع القرآن في عالمه الرحيب

الدكتور عماد الدين خليل

مع القرآن في عالمه الرحيب

دار العلم للملايين
ص.ب ١٠٨٥ - بيروت

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى ١٩٧٩

الطبعة الثالثة

آب (أغسطس) ١٩٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

ما الذي يعنيه رفض الغيب؟

ترد بين الحين والآخر في أحاديثنا ومناقشاتنا اليومية عبارات (بعيدة الدلالة) لا مناص من مناقشتها وابداء الرأي حولها كعبارة (تزويد الطالب بأسس المعارف العامة الضرورية المبنية على... رفض المثالية الغيبية) وعبارة (رفض الافكار الغيبية والضبابية..).

أولاً: إن العبارات آنفة الذكر، تتميز بالغموض وعدم التحديد، فضلاً عن انها توحي بارتباط اكيد بين (المعرفة الغيبية) وبين (المثالية) و (الضبابية) التي ترفضها أية أمة تريد أن تتحرك بجد على أرضية الواقع من أجل مستقبل أكثر تقدماً ورقياً.

ومما لا ريب فيه - كما يتبدى واضحاً في قرآننا الكريم - أن هنالك فرقاً واضحاً بين المعرفة الغيبية (اليقينية) التي جاء الوحي الامين وفق طرائقها الخاصة لكي

يعالج (واقعاً) بشرياً ويرسم له طرق التحضر والتقدم والكشف والإبداع، وبين القيم (الضبابية) و (المثالية) التي تتسم بالطوباوية والغموض وعدم التحديد واللاواقعية مما يرفضه كتاب الله أشد الرفض.

ثانياً: من المفروض تحديد (المنطلق الفكري) في مؤسساتنا الاكاديمية (الانسانية) ومناهج تعليمنا تحديداً دقيقاً نظراً لأهمية الدور الذي تلعبه هذه المؤسسات في مستقبل الفكر والثقافة في بلادنا. فنحن إما أن نكون (ملحدين) نصدر في تفكيرنا وممارساتنا التثقيفية والتربوية عن وجهة نظر (او فلسفة) مادية صرفة لا تتجاوز القيم المرئية الى ما وراء العيان وتكفر بعالم (الغيب)، وترفض بالتالي، (الوحي) كمصدر للمعرفة البشرية.. وهذا ما لا يمكن في بلاد عاشت تجربة التوازن والإيمان بين قيم الحضور والغياب، والمادة والروح، والوحي والتجريب، أربعة عشر قرناً، وأصبح ذلك جزءاً من تاريخها وحضارتها ووجودها.. وإما أن نكون (منسجمين) مع هذا (التاريخ) و (الحضارة) و (الوجود) فنصدر عن رؤية شاملة وموقف (كلي) يوحد بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، وبين الوحي والتجريب.. تماماً كما أراد لنا ديننا أن نكون.

ولا يخفى على أحد أن الأمر أوضح من أن يناقش، فليس

ثمة موقف (وسط) في أمر كهذا: إما المادية الصرفة او الإيمان.. وأي تأرجح تثقيفي أو تربوي بين هذين الموقفين إنما هو موقف مهزوز، غير مبرر ولا منطقي، يؤول في نهاية الامر الى (دوار فكري) يطيح بنا كأمة لها شخصيتها ومعطياتها، وهي بأمسّ الحاجة الى هذه الشخصية وهذا التميز الحضاري، خلال صراعها الكلي الشامل ضد قوى الصهيونية والاستعمار الجديد.

ثالثاً: إن أول ما يطالعنا في القرآن الكريم آيات ثلاث من سورة البقرة تقول: ﴿ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ وهذا يعني - بوضوح - أن حجر الزاوية في ديننا - وفي كل دين سماوي - هو الإيمان بالغيب، لأن الخالق سبحانه، نفسه، لا تدركه الأبصار فهو من الغيب، ولأن أساليبه في (الوحي) الى الأنبياء عليهم السلام تنأى عن أجهزتنا وقدراتنا الحسية، فهي من الغيب.. ومن ثم فإن الدعوة الى التخلي عن الإيمان بالامور الغيبية، ونعتها بالصفات السالبة (كالضبابية) و (المثالية)، إنما هو إنكار للأساس العميق لبنية الفكر الديني في بلادنا.

إننا حيث تلفّتنا طالعتنا في القرآن الكريم فقرات

ومقاطع وآيات حول مسألة الإيمان بالغيب واعتبارها مصدر التصور والسلوك الديني على السواء فضلاً عن تأكيد القرآن المستمر على أن الغيب من (علم الله) الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذي وسع كل شيء (علما) ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو: الأنعام ٥٩﴾ ﴿ولله غيب السماوات والارض واليه يرجع الأمر كله: هود ١٢٣﴾ ﴿وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون: التوبة ١٠٥﴾. وهكذا يبدو (الغيب) في القرآن الكريم (علما) إلهياً شاملاً، وضبطاً كلياً لنواميس السموات والأرض، تلك التي لا يتسنى لأجهزتنا وقدراتنا الحسية المحدودة الإحاطة بها. وليس الغيب – إذن – (مثاليات) و(ضبابا). ويمكن أن نشير هنا الى أن كلمة (الغيب)، بتصريفاتها المختلفة، وردت في القرآن الكريم أكثر من خمسين مرة.

رابعاً: ونحن لا نستطيع – وفق الطرائق المنطقية – أن نرفض قضية ما مجهولة لدينا، أو ننفيها، إلا بعد أن يتأكد لنا ذلك بالأدلة (الحسية) القاطعة.. وهنالك قوانين ووقائع (علمية) لم تهيأ أجهزتنا الحسية لتلمسها والتواصل معها بشكل مباشر، فالذبذبات الصوتية التي تتضاءل وتند عن مقدرة الأذن على تمييز الأصوات، والأشعة ما فوق البنفسجية التي

يستحيل على العين المجردة تمييزها.. وغيرهما كثير.. (حقائق) لم يتمكن الانسان من الإحاطة بها إلا بعد أن ابتكر من الاجهزة والوسائل ما أعان به قدراته الحسية على الرؤية والمعرفة، ومع ذلك فإن (غياب) هذه الاصوات والاضواء عن الإدراك المباشر لا تسمح لنا بأن نرفضها باعتبارها أموراً غيبية تند عن المعرفة اليقينية المباشرة. وهل ثمة ما يقال بعدما تبين لعلماء الطبيعة، في العقود الأخيرة من هذا القرن، أن البنية الأساسية للكون تقوم على (الطاقة) لا (المادة)؟ وهل يبقى مبرر للتفريق بين (ما يرى) و (ما لا يرى) خلال تنقيبنا في الكون وكشفنا عن قوانينه وأسراره؟

إننا - على سبيل المثال - نقرأ في كتاب (اينشتين والنسبية) لمصطفى محمود أن « جزيئيات كل المواد حتى الحديد، مخلخلة ومنفصلة، عن بعضها.. بل أن الجزيء نفسه مؤلف من ذرات منفصلة، والذرة مؤلفة من بروتونات والكترونات هي الأخرى منفصلة ومخلخلة.. كل المواد الصلبة عبارة عن خلاء منثورة فيه ذرات، ولو أن حسنا البصري مكتمل لأمكننا أن نرى من خلال الجدران لأن نسيجها مخلخل كنسيج الغربال. ولو كنا نرى عن طريق أشعة اكس لا عن طريق النور العادى لرأينا بعضنا عبارة عن هياكل عظمية، لأن أشعة اكس تخترق المسافات الجزيئية في

اللحم وتراه في شفافية الزجاج.. إن رؤيتنا العاجزة هي التي ترى الجدران صماء، وليست هي صماء، بل هي مخلخلة أقصى درجات التخلخل، ولكن وسائلنا المحدودة،والأشعة التي نرى عن طريقها ،لاتنفذ فيها وإنما تنعكس على سطوحها وتبدو لنا وكأنها سد يقف في طريق رؤيتنا.

«إنها جميعا أحكام نسبية تلك التي نطلقها على الأشياء - نسبة الى حواسنا المحدودة - وليست أحكاماً حقيقية. والعالم الذي نراه ليس هو العالم الحقيقي. وانما هو عالم اصطلاحي بحيث. نعيش فيه معتقلين في الرموز التي يختلقها عقلنا ليدلنا على الأشياء التي لا يعرف لها ماهية أو كنهاً....»

«إن هناك اكثر من دنيا.. هناك الدنيا كما هي في الحقيقة، وهذه لا نعرفها ولا يعرفها إلا الله. وهناك الدنيا كما يراها الصرصور. وهي مختلفة تماما عن دنيانا لأن الجهاز العصبي للصرصور مختلف تماما عن جهازنا، فهو يرى الشمس بطريقة مختلفة. وهو لا يرى الشجرة كما نراها نحن شجرة، وهو لا يميز الألوان. وهناك الدنيا كما تراها دودة الاسكارس وهي مختلفة تماما عن دنيا الصرصور، فهي دنيا كلها ظلام، دنيا خالية من المناظر. ليست فيها سوى إحساسات بليدة

تنتقل عن طريق الجلد. وهكذا، كل طبقة من المخلوقات لها دنيا خاصة بها... وهي تعيش سجينة في تصوراتها، لا تستطيع أن تصف الصور التي تراها للطبقات الأخرى.»

«وعالم الطبيعة المشهور هايزنبرج يقول: في العلم لا يوجد شيء اسمه حقيقة. العلم لا يستطيع أن يعرف حقيقة أي شيء. انه يعرف كيف يتصرف ذلك الشيء في ظروف معينة، ويستطيع أن يكشف علاقاته مع غيره من الأشياء، ويحسبها، ولكنه لا يستطيع أن يعرف ما هو العلم. يدرك كميات ولكنه لا يدرك ماهيات. العلم لا يمكنه أن يعرف ما هو الضوء ولا ما هو الألكترون، وحينما يقول إن الأشعة الضوئية هي موجات كهربية مغنطيسية، أو فوتونات، فإنه يحيل الألغاز الى ألغاز أخرى، فما هي الموجات الكهربائية - المغنطيسية؟ حركة في الأثير؟ وما الحركة وما الأثير وما الفوتونات؟ حزم من الطاقة؟ وما الطاقة؟.. »

وهكذا فإن التقدم العلمي المذهل في العقود الأخيرة، يعرض علينا المسألة في طرفيها: ان قدراتنا العقلية والحسية - من جهة - لا تستطيع أن تحيط بالحقيقة المطلقة علما، وان (نسبية) المعرفة البشرية - من جهة أخرى - تفرض الاعتقاد بأنه ليس كل ما لا تراه أجهزتنا ليس

بموجود... ومن ثم يبدو أن رفض (الغيب) بالسهولة التي يمارسها عدد كبير من أنصاف المتعلمين، انما هو - وفق التحليل العلمي نفسه - جهالة ترتكب باسم العلم والواقعية.

خامساً: إذا كان بعض الفلاسفة والمفكرين (الوضعيين) قد مارسوا في معالجاتهم ودراساتهم لما (وراء الطبيعة) الكثير من (الضبابيات) و (المثاليات) (الغيبية) (لاحظ مثلا مثالية هيغل التي وصفت بأنها تمشي على رأسها!!)، ووضعوا مذاهب ونظريات ما أنزل الله بها من سلطان، ولا تنسجم بحال مع اليقين (العلمي التجريبي) أو الواقع (الحركي المتطور)، فهذا أمر طبيعي لأن وسائل الانسان الوضعية (الحسية والحدسية والعقلية) غير قادرة على خوض عالم غير منظور كهذا، ومن ثم تأتي النتائج (غامضة) سالبة و(معماة). وكثيرا ما تساءل (انغلز) عن المكان الذي يقبع فيه ما أسماه هيغل روح العالم أو العقل الكلي الذي يسير حركة التاريخ ويوجهها..

إلا أن الخطأ لا يبرر الخطأ. وما يصدر عن الله الخالق العالم المريد في قضايا الغيب عن طريق الوحي الأمين، غير ما يصدر عن عبيده من الفلاسفة والمفكرين من غموض واضطراب ومثاليات ضبابية لا رصيد لها في عالم (الواقع).

سادساً: اننا بدلا من أن نجنح باتجاه المادية الصرفة، علينا أن نتحقق بالتوازن الذي هو الأساس الصحيح للسلوك الفردي والجماعي عبر التاريخ.

وإذا كان القرآن الكريم قد بنى التصور الديني على أساس (الغيب) باعتباره المصدر اليقيني للمعرفة، فإنه أكد في الوقت نفسه على ضرورة وأهمية (التجريب)، واعتماد (الحواس) وتعميق صلة (العقل) بما حوله في حقول النفس والطبيعة والحياة لاكتشافها وتسخيرها لخدمة الحضارة البشرية ورقيها، وتحقيق فكرة (استخلاف) الانسان على الأرض من أجل أداء دوره الحضاري فيها. ونحن نجد هذه (المسؤولية) الملقاة على عاتق الحواس والعقل في الآية ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم، ان السمع والبصر والفؤاد، كل اولئك كان عنه مسؤولا﴾.. وهناك ما يزيد على خمسين وسبعمائة آية - على وجه التقريب - دعت المسلمين الى ضرورة اعتماد الطاقات الحسية والعقلية والتجريبية لاكتشاف قوانين الطبيعة والحياة وتسخيرها لخدمة الانسان.

إن تأكيد القرآن الكريم على الإيمان (بالغيب) لم يمنعه من التأكيد على التجريب والاختبار والنشاط العقلي والممارسة العملية... بل على العكس يتساوق معه، يوازيه ويعتمده في

تعميق الإيمان بالغيب كتفسير يقيني للوجود الكوني والبشري على السواء، بما فيه من دقة وضبط وتوافق ونظام.. يؤكد هذا ان ما طرحه القرآن الكريم حول بعض القوانين والسنن الكونية من معطيات (في حقول الحياة والطبيعة والفلك... الى آخره) جاءت النظريات العلمية - أخيرا - لكي تعززها وتوضح أبعادها التي خفيت على أفهام أجيال كثيرة في الماضي... وهذا هو مصداق الآية الكريمة ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾.

مُلاحظة في التقليد الحضاري

مَلكيوّن اكثر مِنَ الملك

يبدو واضحاً أن أبناء الحضارة المهزومة يتبعون في نشاطهم الثقافي والعلمي تقليداً غير ذلك الذي يتبعه أبناء الحضارة الأصيلة المبدعة.. تقليداً، لا يعود في جذوره إلى المعطيات التجريبية والثقافية فحسب، بل إلى التجارب النفسية والاجتماعية وإلى مقدار الثقة والاعتزاز أو الشك ومركب النقص الذي يتميز به أبناء حضارة من الحضارات. وتبدو (نظرية) داروين في (النشوء والارتقاء) خير مثال نضربه في هذا المجال. فبينما نجد ابناء الغرب من أنصار وتلامذة داروين أنفسهم يسعون للحصول على المزيد من اليقين العلمي، والمزيد من (التطوير) و(الملاءمة) بين النظرية وبين الحقائق الجديدة التي تتمخض باستمرار.. ويفترق عنه الكثيرون، وهم معتزون واثقون بوجهات نظرهم المخالفة - بشكل من الأشكال - للاصول الأولى.. نجد أبناء الشرق يغمضون أعينهم المصابة بالرمد إزاء البريق الوهاج الذي انبثق اول

مرة عن نظرية دارون رغم اعتراف صاحبها بخطورة فجواتها. وظنيتها.. ويقولون - كالدراويش الذين يهتزون حمداً وتسبيحاً عند كل عبارة - إن ما قاله (الأستاذ) هو الحق المطلق. واننا يجب أن نطوع كل أفكارنا وثقافتنا وتجاربنا ومعطياتنا الثقافية وفق تلك النظرية.. وحتى (تفسيرنا) للقرآن الكريم يجب أن (نوجهه) في الطريق التي تلتقي في النهاية بما طرحه دارون!!

صحيح أنه لا توجد لدى الشرقيين الوسائل والظروف والقدرات التجريبية الكافية لاختبار صحة أو خطأ نظرية ما من نظريات (العلم) الغربي، وبالتالي فاننا لن نطلب منهم ابداً التصدي لفحصها ومعارضتها أو تأييدها(علمياً). لأن جوابهم حينذاك معروف. ولكننا نريد فقط أن ننبههم إلى ضرورة أن يكونوا أكثر (موضوعية) واخلاصاً للنظرية ذاتها عن طريق ملاحظة وتتبع معطيات الغربيين أنفسهم - بما فيهم تلامذة ورفاق دارون - بصدد النظرية. وحينذاك سيعرفون أن ما كل نظرية تطرح هناك تغدو قانوناً معمولاً به، أو قضية مسلمة لا تقبل مناقشة ولا جدالاً. وانها لا بد وان تجتاز مئات الامتحانات والاختبارات والفحوص. ويسقط عنها عشرات التخمينات والاستنتاجات (الظنية) كي يؤخذ بها أمراً مسلماً.. وربما أدى ذلك كله بالنظرية إلى أن

تتجه وفق مسارات معاكسة تماماً للمنطلقات الاولى!! نريد منهم - فقط - ألاّ يكونوا - كما يقول المثل - ملكيين أكثر من الملك!!

ان الفرق الأساسي بين أبناء حضارة حية متطورة مبدعة وبين اناس لا يملكون حضارة، أو يحيون تقاليد حضارة في طريقها إلى السقوط، هو أن هؤلاء الآخرين يأخذون بمبدأ التسليم المطلق بكل ما يطرحه العلم أو الثقافة، دون أن يحاولوا فحص وتجريب مدى صحة أو خطأ هذه الطروح. أما الأولون فانهم لا يكفون أبـداً عن الفحـص والتساؤل والتجريب لان جديتهم و(موضوعيتهم) تعلمهم حقيقة أن العلم لن يقف يوماً عند عتبة سلم الا ليتجاوزها الى عتبة أخرى، وان معطيات العلم كثيراً ما ينقض بعضها بعضاً، وينسخ بعضها بعضاً. ومن ثم فإن (الركود) عند درجة في السلم تعني أن(المحرك) الأساسي للصعود قد توقف ولن يكون بعد ذاك تطور أو تقدم بمفهومها الصحيح العميق.. وهي ظاهرة سالبة ما مارستها حضارة من الحضارات الا وكان ذلك يعني أنها في طريقها الى نهايتها المحتمة..

في مسرحية برناردشو (أكثر صدقاً من أن يكون صادقاً) يقول أحد الأبطال: «أجل يا سيدي، كون اسحق نيوتن.. قد تهاوى أمام نقد آينشتاين. وقد كان كون نيوتن دعامة

التصميم الذهني.. وكان في الوسع حساب كل شيء.. وكان كل شيء يحدث لأنه يجب أن يحدث.. والآن، الآن ماذا يبقى؟ كل شيء هو وهم.. العالم الذي كان حسابه ممكناً صار صعباً على الحاسبين». وفي بحث (العقل في منتهى حدود الاحتمال) لـ (هـ.ج.ولز) ترد هذه العبارات «لقد جدت على الحياة غرابة مفزعة. ان الحوادث التي حدثت حتى الآن تتميز بنوع من المعقولية والمنطقية، تماماً كما يضبط قانون الجاذبية الأجرام السماوية. أما الآن فيلوح أن ذلك التسلسل قد اختفى»!![1]

ونحن هنا لن نطيل على القارىء بعرض مواقف الغربيين، فلاسفة وعلماء، إزاء الداروينية، ولكننا نمر ببعضها مسرعين من خلال كتاب (سقوط الحضارة)، حيث التحليل الذكي لهذه المواقف.

يقول كولون ولسون، مؤلف الكتاب المذكور «ان ما فعله توينبي هو أنه أدلى بحقيقة رئيسية ضد المادية، اذ لا يعتمد الأفراد فقط على الطاقة الابداعية المطورة، وانما تعتمد الحضارات أيضاً على تلك الطاقة، وهذا مضاد للماركسية تماماً،

(١) كولن ولسون: سقوط الحضارة، الطبعة الثانية ص ٣٥٠ (ترجمة أنيس زكي حسن).

لأن الماركسية تقول: إن الحضارات تتطور وفقاً للضغوط الاقتصادية، وليست هنالك ارادة حرة. أما توينبي فانه يقول: ان الحضارات تزدهر أو تتدهور وفقاً للطاقة الأخلاقية التي تتميز بها (الأقلية المبدعة)، ولهذا فان عبارة (الطاقة الأخلاقية) تكون عديمة المعنى اذا لم توجد هنالك ارادة حرة.

« ويجدر بنا أن نلاحظ أن ثورة توينبي ضد المادية تتبع نفس الخطوط التي تتبعها ثورة لامارك ضد دارون. ولقد كان يتطور دارون مادياً فقط، فاذا كانت الزرافات موجودة اليوم برقابها الطويلة فذلك لأن الزرافات التي كانت قصيرة الرقاب انقرضت لأنها لم تكن تستطيع أن تبلغ الأشجار العالية، في حين أن الزرافات طويلة الرقاب تكاثرت وصارت تنتج زرافات أخرى برقاب أطول. ويسمي دارون هذا: (بقاء الأصلح) أو (الاصطفاء العرضي)، وهو يعني بذلك أن تعيين نوع الزرافات التي تعتبر أكثر صلاحاً كان أمراً عرضياً. أما لامارك فقد قال إن للزرافات رقاباً طويلة لانها كانت تريد أن تكون لها تلك الرقاب (!!) وانه حين قل الطعام على الأغصان المنخفضة من الأشجار، بدأت الزرافات تحاول أن تبلغ الأغصان العالية وبذلك تكون قد (أرادت) أن تكون لها تلك الرقاب الطويلة.

« ويتضح لأي عاقل (!!) أن فكرة لامارك أصح من فكرة داروں، لأن الانسان يستطيع أن يقوي عضلاته. أو أية قابلية أخرى، اذا كان بقاؤه يعتمد على ذلك. ان الظروف الصعبة لا تقتل الانسان - الامر الذي أوضحه داروں حين قال ان ذلك هو ما حدث للزرافات قصيرة الرقاب - وانما تمثل تلك الظروف تحدياً يستجيب له المرء، وهذا هو التطور اللاماركي »[٢].

أما برنارد شو فإنه يقول، في مقدمة مسرحيته (العودة الى ميتوشالح): « ان داروں أراد أن يجعل الحياة مجرد ميكانيكية حياتية، وان لامارك كان قد جاء بنظرية أقوى عن التطور قبل داروں. وقال لامارك إن الأجناس تتطور لأنها تريد أن تتطور، أما داروں فانه يقول إنها تتطور أتوماتيكياً نظراً لتغير ظروفها ».. ويقول في نفس المقدمة « ...لم يكن الناس قادرين على أن يفهموا.. لماذا كنت أخشى الداروينية الجديدة[٣]، وأعتبرها حماقة مفزعة، واهاجم دعاتها بعنف وحدة ». ثم يتحدث عن النتائج المفزعة التي تمخضت عنها المادية الداروينية في السياسة - وهو يشير هنا الى

---

(٢) المصدر السابق ص ١٥٠ - ١٥١.

(٣) تمييزاً لها عن نظرية لامارك التي سبقتها.

حرب ١٩١٤ - ويقول مثل توينبي، إن الحضارات تسقط في اللحظة التي تكون فيها قوة الانسان أشد من قوة الدين « اي أمل هنالك إذن في أن تسير الانسانية الى الأفضل؟، اذا كان الداروينيون الجدد والميكانيكيون لا يعتقدون ان هنالك شيئاً من الامل، لأن التطور لا يحدث الا بصورة عرضية لا تدبير فيها ولا حكمة... بيد أن هذه العقيدة الشقية لا تثبط عزائم اولئك الذين يؤمنون بأن الدافع الذي ينجم عن التطور هو خلاق. وقد لاحظوا حقيقة شديدة البساطة، وهي ان الارادة التي تصر على شيء تفعله في النهاية، وهي تستطيع في لحظات معينة من التركيز الذي تبلغه لإيمانها بالحاجة اليه، أن تخلق وتنظم كياناً جديداً، ولهذا فهؤلاء لا يعتبرون الجنس البشري لعبة لا ارادة لها ». وقد أشار وايزمان عالم الأحياء البارع الذي هبطت به الداروينية الجديدة الى مستوى الحماقة، الى أن الموت ليس حالة ابدية في الحياة وإنما هو حادث عرضي يفيد للتجديد الدائم، ولتجنب ازدحام الأرض!![٤].

ويوضح برناردشو بعض الامور بوضوح وتأكيد شديدين: كأهمية المسألة الدينية المتمثلة في النظام، في الضبط الذاتي:

(٤) عن سقوط الحضارة ص ٣٣٩.

«لما لم يكن في الداروينية مجال للارادة الحرة، أو أية أرادة أخرى، فان الداروينية الجديدة تعتقد بأنه ليس هنالك ما يدعى الضبط الذاتي. ومع ذلك فان الضبط الذاتي هو الميزة الوحيدة لقيمة البقاء التي نجد أن اختيار الظروف يجب دائماً أن يؤدي اليها في المدى البعيد. وقد يتم اختيار صفات غير منضبطة لتبقى وتتطور لفترات معينة في ظروف معينة. اذ لما كان النهمون هم الذين يكافحون أشد الكفاح من أجل الطعام والشراب، فان جهودهم تطور قوتهم وبراعتهم في فترة قصيرة جداً، بحيث أن أقصى ما في وسعهم أن يفعلوه لا يمكنهم من أن يأكلوا أكثر مما يستطيعون. ولكن أي تغيير في الظروف يأتيهم بمقدار كبير من الطعام يدمرهم. ونحن نرى هذا الامر يحدث دائماً، اذ نرى فقيراً قوياً صحيح البنية يصبح مليونيراً بالصدفة التي غالباً ما تحدث في التنافس التجاري، وسرعان ما يبدأ بحفر قبره بأسنانه. أما الانسان المنضبط ذاتياً فهو يظل على قيد الحياة في تغيرات الظروف لأنه يعد نفسه لها، فلا يأكل أكثر من قابليته ولا أقل منها، وانما يأكل بالقدر الذي ينفعه. فما هو الضبط الذاتي؟ انه لا شيء سوى الحيوية المتطورة، المتحكمة في الشهوات العادية والمنظمة لها، فاذا أغفلنا وجود هذا المفهوم السامي، واذا فشلنا في فهم البدهية الواضحة من أن النوع هو الذي يميز من

يستحق البقاء، كما تفعل المادية الداروينية الجديدة باسم الاصطفاء الطبيعي، فان هذا ليدل على حاجة علماء هذه الفكرة الى فهم موضوعهم نفسه، كما أنه يدل على عدم ملاحظتهم للقوى التي يتم بموجبها الاصطفاء الطبيعي»!![٥].

* * *

إن توينبي أو كولن ولسون أو برناردشو أو أياً من المفكرين الغربيين الذين تناولوا نظرية داروn بالنقد والتمحيص، لو كان يعلم - يقيناً - أن ما جاء به دارون هو الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لكان من السخف أن يتعرض لمناقشة (يقين) كهذا بعبارات تخمينية كهذه (أرى.. يرى.. ضرورة فهم موضوعهم نفسه.. يدل على عدم ملاحظتهم.. هبطت به الى مستوى الحماقة.. جاء لامارك بنظرية أقوى.. ويتضح لاي عاقل..الخ)، لكنه يعلم - قطعاً - أن رفيقه يبني الأجزاء الكبرى من نظريته على الظن والتخمين، ولذا فهي قابلة للمناقشة والرد سواء بالاسلوب العلمي التجريبي، أم بالظن والتخمين والترجيح كذلك!! فهي - من هذه

(٥) المصدر السابق ص ٣٤١ - ٣٤٢.

الناحية - أشبه بنظرية فلسفية يحق لكل باحث في حقول الفلسفة أن يأخذ منها ما يراه حقاً ويدع ما يراه باطلاً متهافتاً، ونحن رأينا ناقديه أنفسهم يقعون في خطأ الظن بأن للزرافة ارادة ذاتية في تطوير رقبتها من أجل أن تصل الى غذائها المعلق على الغصون العالية!!

ان معطيات دارون لم تقم جميعاً على مسلمات علمية منبثقة عن عينات حياتية توفرت لديه في جميع مراحل بحثه.. بل ان هذه العينات لم تخدمه سوى في مساحات ضيئلة من مسيرته التجريبية وملاحظاته الاستقرائية، أما المساحات الاوسع فقد غطاها بالظن والترجيح والتخمين.. ولذا فليس من المستحيل على أولئك المفكرين الواثقين بأنفسهم أن يناقشوا دازون ويحاسبوه على تخميناته وأن يأخذوا من نظريته ويدعوا حسبما يملي عليهم تفكيرهم ومتابعتهم العلمية ونتائج الأبحاث والحفريات والكشوف الجديدة التي لا تقف عند حد إلا لتتجاوزه الى آفاق أخرى..

اننا اذا سايرنا وجهة نظر دارون في حدوث طفرات في تطور بعض الأنواع فاننا لابد وأن نجد أنفسنا أمام هذا السؤال: لماذا لا تخطىء هذه (الطفرات) يوماً - كمّاً أو نوعاً - فتؤدي الى ظهور (نوع) أو (أنواع) تسبب دمار

الحياة على الارض؟ الا يعني هذا أنه - حتى على فرض الإيمان المطلق بالطفرة - فان هنالك قوة عاقلة تشرف على توجيهها لصالح الحياة؟ أو على الاقل تمنح الانسان العاقل القدرة على التحدي والمجابهة؟ واذا كانت (الطبيعة) تهيىء لكل مخلوق وسائله الخاصة لحماية نوعه من الانقراض فهل هذا يعني أنها تملك البصيرة النافذة التي تمنعها من أن يكون للانسان منشار كمنشار التماسيح، فضلاً عن عقله؟ ألا يمكن أن تقع في الخطأ - يوماً - وتمنحه وسيلة مادية (زائدة) للدفاع عن نفسه؟ الا يعني هذا أن (الطبيعة) في تقسيمها المنطقي لوسائل الحماية على المخلوقات، تفكر وتعقل؟!

إن الله سبحانه، وهو القدير الخلاق، شاء أن تكون الارض - وقد هيأها أساساً لتوالد الحياة ونموها وحمايتها - مسرحاً لعرض قدراته الخلاقة في تشكيلة من المخلوقات البسيطة أو المعقدة، ذات الاشكال والتراكيب المعجزة.. ونحن أمام فرضين لا يصطدم أي منهما بأي من الحقائق الدينية عامة والقرآنية على وجه الخصوص. بل العكس، يسايرها ويوضحها.. أحدهما خلق مباشر (مستقل) لحشد هائل من المخلوقات المتمايزة، وهو أمر لن يعجز الله سبحانه وهو الذي خلق الكون في ستة أيام، وأتاح للأرض امكانية الحياة ءوقها بشكل معجز خارق من بين ملايين السدم والنجوم.. وأما

الاحتمال الآخر فهو إتاحة المجال للطبيعة والاسباب والسنن أن تعمل عملها - على مدى الازمان الطويلة - في تطوير الحياة على الارض، فيما سماه داروِن (الانتخاب الطبيعي)، وذلك بتطوير المخلوقات (الحية) والتدرج بها من شكل الى شكل في مواجهة تحديات البيئة.. وهو أمر يحدث ليس فقط على نطاق الحياة وانما على كل نطاق (التطورات الجيولوجية، المناخية، الكونية بصورة عامة حيث الاتساع المستمر كما يؤكد القرآن الكريم).. الا أن تلك السنن والنواميس التي (تضبط) هذا التطور و(توجهه) لا يمكن بحال أن تنوجد من العدم لكي تمارس مهمتها العاقلة الدقيقة المعجزة هذه!!

ان قدرة الله سبحانه على خلق أنواع شتى من الموجودات بهذا التنوع، توحي بان هناك تدرجاً في الخلق من الاشكال البسيطة الى الاشكال العليا، ونحن لا نستطيع التسليم المطلق بهذه الفكرة، الا أننا يجب أن نلاحظ بان الله سبحانه ما دام قد هيأ أرضية للحياة على سطح الارض بمواصفاتها وتركيبها المعروف فلا بد اذن أن يكون هناك قاسم مشترك أعظم في طبيعة التكوين البيولوجي لسائر المخلوقات الامر الذي يمكن أن نلمسه في تكوين (الخلية)..وهذا القاسم المشترك إنما هو الدليل الذي لا ريب فيه على أن وحدة الخلق من وحدة الخالق.. ترى لو أن ظروفاً ذات سمات ومواصفات اخرى

للحياة قد هيأها الله سبحانه على سطح كوكب آخر، ألا ينتج عن هذا تكوين بيولوجي لمخلوقاته يختلف - بشكل من الاشكال - عما في الارض لكي يكون ملائماً لظروف ذلك الكوكب؟! من الذي يحدث هذه المواءمة الحيوية بين المخلوقات جميعاً وبين الأرضية التي تتحرك عليها وتحيا فوقها؟ من الذي هيأ للاحياء جميعاً - على سبيل المثال - قدرة حيوية على امتصاص الاوكسجين أو الكاربون وتمثله؟ الا يدفعنا هذا الى تخمين معاكس لفرضية دارون وهو أن تشابه الاوليات الحياتية لفصائل المخلوقات لم يجيء لانها تطورت عن بعضها وانما لانها بخلقها (المستقل) تشترك جميعاً بتعامل واحد إزاء ظروف حياتية واحدة تفرض على الكائنات الارضية جميعاً أن تأكل وتشرب وتتنفس وتنام؟!.

ومندل، عالم الحياة المشهور، ألا يقرر أن كل نوع - على الاقل في الفترات الاخيرة من تاريخ الحياة وهي الفترات التي تخضع للتفحص والتجريب وليس للظن والتخمين - يحتفظ بخصائصه ومميزاته الوراثية التي تحمي نفسها وفق قوانين غاية في الدقة والاعجاز؟ ألا يتعارض هذا مع نظرية دارون التي تلغي الصفات والميزات؟ ان فصائل القرود العليا وقفت - فيما يبدو - عند مرحلة من الادراك والقدرة على الابداع والتنفيذ لا يمكن مقارنتها - بأي حال - بمدركات الانسان

(وهذا الفرق الاساسي هو ما أكد عليه هكسلي أحد رواد النشوء والارتقاء).. ولقد أثبت علم النفس أنه عن طريق(تجربة الخطأ والصواب) يمكن تعليم. حتى القطط والكلاب. على العديد من الحركات والمهارات التي تمارسها فصائل القرود.

* * *

لقد عجز دارون تماماً عن تحديد مصدر الحياة الاولى على الارض.. وقال يوماً - متحدثاً عن مشاهداته لتركيب العين المعجز « كلما تذكرت مشاهدتي لتركيب العين هزتني قشعريرة.. أنا لا أعتقد أنه ليس هناك إلّه »!!.. وأعلن هكسلي بعده، عن ضرورة اجراء تعديلات جوهرية على صلب النظرية. واما الفلاسفة والمفكرون الاوربيون أمثال توينبي وبرنارد شو فقد أبدوا تشككهم ازاء الكثير من تخمينات الداروينية. خصوصاً تلك التي تنفي حرية الانسان وارادته الذاتية في تطوير امكانياته على نطاق الحياة الخاصة والحضارات..

أما نحن فهل سنظل أسرى حضارتنا الضائعة. وقيمنا المشوهة ونغدو ملكيين أكثر من الملك؟!

القرآن والبعد الزمني

(١)

في القرآن الكريم إشارات ولمحات معجزة عن البعد الزمني في الكون، تثير الدهشة والتساؤل، ولو تيسر لجمعها وتنسقيها وتحليلها عالم طبيعي أو رياضي (مؤمن) وقارنها بنسبية (آينشتاين) التي أدخلت البعد الزمني كبعد جديد ثالث في دراسة الكتلة الكونية، لرأى بأم عينيه العجب العجاب، ولأدرك يقيناً أن هذه الاحاطة الرياضية الشاملة بأبعاد الكون، وعدم التقيد بمقاييس الارض ونسبياتها المحدودة، سيما في زمن نزول القرآن حيث علوم الطبيعة والرياضة لا زالت تحبو بعد، لم تتجاوز مرحلة طفولتها.. وهذه النظرة الكلية التي تطل على الكون ولا تندمج فيه.. انما هي جميعاً من لدن العليم الخبير الذي أحاط بكل شيء علماً!!

ولست هنا بالذي يبحث عن هذه التحليلات والمقارنات،

وما أنا بقادر عليها.. انما أريد أن اقدم بعض الملاحظات الاولية في هذا الجانب المعجز من القرآن الكريم ومن حياتنا البشرية على السواء، لانه - والحق يقال - يثير الرغبة في التأمل ويدفع الى الاستقصاء حتى لو أوقع المتأملين والباحثين في عشرات الاخطاء.. لكن عذرهم أنهم يريدون بهذا البحث ان يتعبدوا الله جل جلاله ويتقربوا اليه!!

(٢)

ما الذي يلفت الأنظار في قرآننا الكريم بهذا الصدد؟ حشد من الآيات واللمسات والاشارات منبثة في حنايا السور هنا وهناك.. نذكر منها هذه الآيات الموحية ذات الدلالة العميقة: ﴿قال: كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم: البقرة ٢٥٩﴾ ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهـار: يونس ٤٥﴾ ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده، وتظنون ان لبثتم الا قليلاً: الاسراء ٥٢﴾ ﴿قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين: المؤمنون ١١٣﴾ ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة:الروم ٥٥﴾ ﴿ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون: السجدة ٥﴾ ﴿يسأله من في السماوات والارض، كل يوم هو في شأن: الرحمن ٢٩﴾ ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها:

النازعات ٤٦﴾ ﴿اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثت إلا يوماً: طه ١٠٤﴾ ﴿وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون:الحج ٤٧﴾ ﴿أدعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب: غافر ٤٩﴾ ﴿ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام: الاعراف ٥٤﴾ ﴿الله الذي خلق السماوات والارض وما بينهما في ستة أيام: السجدة ٤﴾!!

(٣)

إن بين هذه الآيات المنبثة في حنايا القرآن - وغيرها كثير - ترابطاً وانسجاماً رياضياً دقيقاً. وان فيها تأكيداً مستمراً على الحقيقة (الطبيعية) الكبرى التي لم تتكشف بعض جوانبها للعلم الا أخيراً. تلك هي ان الزمن في الارض والزمن في امداء الكون ليسا سواء، وان هناك فرقاً شاسعاً بين الوحدة الزمنية الارضية والوحدة الزمنية الكونية. تبلغ تارة...,٣٦٥ ضعفاً. وتبلغ تارة أخرى ....,١٨,٢٥٠ بحساب القرآن الكريم نفسه.. فأين نحن في حياتنا الدنيا وفي أيامنا الضئيلة التافهة هذه؟

من أجل ذلك سيشده الناس يوم القيامة وسيظنون أن حياتهم الدنيا لم تكن سوى ساعة من نهار. وأنهم لم يلبثوا الا قليلاً. وعندما يسأل أحدهم: كم لبثت؟ يجيب: لبثت يوماً أو

بعض يوم.. أما المجرمون فيقسمون أنهم ما لبثوا غير ساعة.. ويقول أمثلهم طريقة: ان لبثت الا يوماً!! ويسعى هؤلاء المجرمون الى التأكد من هذه الحقيقة الواضحة للعيان فيلتمسون من الله جلَّ وعلا أن يسأل العادين فلعل عندهم الخبر اليقين.. ومن أجل ذلك كانت دعوة الكافرين وهم يتخبطون في أعماق جهنم أن يخفف ربهم عنهم يوماً واحداً من العذاب، فما أشد هذا اليوم الكوني وما أطوله!! فهو ربما يكون ثمانية عشر مليوناً ومئتين وخمسين ألفاً من أيامنا على الارض!!.. حقيقة رهيبة هائلة.. تقشعر لها الابدان، وتشعرنا - لو كنا مؤمنين قليلاً - بضآلتنا وتفاهتنا وانحسارنا في زاوية من زوايا الكون لا تعدو أيامها أن تكون لحظات من الايام هناك، فيما وراء عالمنا الأرضي ونسبياته المحزنة!!

ورغم ان الله سبحانه يريد أن يرفعنا ويطهرنا ويكرمنا على العالمين، ويمنحنا مكانة كبيرة في هذا الكون الشاسع، نتجاوز بها انحسارنا وضآلتنا وتفاهتنا، فاننا نرفض هذه المنحة، ونشيح عن هذا النداء الكبير، ونتجمع على بعضنا خائفين مرتعبين كالديدان، من أجل ألا نسمع صوتاً ينقلنا من الحفرة الضيقة الى رحاب الكون!! ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ (ان الله يمهل ولا يهمل) وانه (يملي للظالم حتى

اذا أخذه لم يفلته..).. وهذا الإمهال للكفار والطواغيت والمجرمين يبدو في حسابنا الارضي طويلاً.. طويلاً.. قد يتجاوز السنوات، وقد يمتد الى عقود السنين، وربما قرونها، لكي تحق كلمة الله على الظالمين ويأخذ العدل الإلهي مجراه.. لكن هذه الايام والسنين والعقود والقرون لا تعدو في زمن الله يوماً أو بعض يوم، ومن ثم كان تمهُّل الله بطيئا في حسابنا، سريعاً سرعة مذهلة في حساب الملأ الأعلى.. واذا كنا نحن نستبطيء عقاب الله حيناً، فربما كان الملأ الأعلى يتسرعه أحياناً.. وما كان لنا اذن الا أن نذعن لأمر الله، وتتيقن نفوسنا عدله الازلي الشامل الذي يتجاوز نسبيات الزمان والمكان الى القيم المطلقة التي لا ينحرف بها ميزان ولا يطيش عندها جزاء أو عقاب..

(٤)

ومن بين هذه الآيات (المحكمة) نلتقي بحقيقة (طبيعية) أخرى لا تقل في خطورتها وضخامتها عن الحقيقة السالفة، ان لم تفقها وتتجاوزها الى ما هو أشد وأخطر.. ان القرآن الكريم يعلن ان الله سبحانه وتعالى خلق السموات والارض في ستة أيام، ويكرر هذا الاعلان في أماكن عديدة، ثم يفصله في سورة (فصلت) فيقول ﴿قل: ائنكم لتكفرون بالذي خلق

الارض في يومين وتجعلون له أنداداً، ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها. وبارك فيها. وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى الى السماء - وهي دخان - فقال لها وللارض: ائتيا. طوعاً أو كرهاً. قالتا: أتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها: ٩-١٢﴾.

ولنا أن نتصور. لا بحسابنا الارضي. ولكن بحساب (المطلقات) القرآنية، الامداء الزمانية لهذه الايام الست التي (صمم) فيها الله سبحانه بناء السماوات والارض، وأعد كرتنا الارضية لاستقبال الحياة وانمائها وتطويرها على يد الانسان، (خليفــة) الله في الارض وسيــد مخلوقاتهــا!! ولنــا أن نتصور - كذلك - كيــف تم هذ التصميم والإعداد المعجزين القائمين على قوانين وسنن ونواميس غاية في الدقة والاتقان والانضباط، ليس أقلها قوانين الجاذبية، وتصريف الرياح، وحركة الليل والنهار، وانبات النخل والرمان والعنب من قلب التربة، وتوازن نسب مكونات الغلاف الغازي، وخلق الانعام، وإرساء الجبال. وتكثيف الغاز والدخان الى كتلة صلدة صالحة للحركة والبناء. وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح الزرقاء، وتفجير الحياة في الطين اللازب!! ولنا ان نتصور - بعد هذا وذاك - ماذا تريد هذه الآية أن

تقوله لنا: ﴿يسأله من في السماوات والارض، كل يوم هو في شأن﴾! كل يوم! واي يوم؟ إنه ذلك الذي قلنا إنه ربما يبلغ ...,۱۸,۲٥۰ يوماً من أيامنا ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان؟﴾.

(٥)

ونريد أن نقف قليلاً عند هذه الآيات، ففيها من الحقائق الشاملة والايحاءات العميقة ما يهز الفكر والوجدان.. والعجيب أنها تعرض هذه الحقائق (الرياضية) بأسلوب يقطر موسيقية وتأثيرية ووجداناً.. ولنتدبرها معاً: ﴿سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة!! فاصبر صبراً جميلاً. إنهم يرونه بعيداً. ونراه قريباً: المعارج ١ - ٧﴾!!

إن الملائكة والروح، وقد تجردت من عوائق الجسد والتراب التي تقيد الانسان، وتجاوزت قوانين الزمان والمكان الارضية النسبية، تصعد الآن في طريقها إلى بارئها عبر معارج وأمداء لا يحيطها قط خيال إنسان، مهما امتد به الخيال.. لأنها ستجتاز هذه الامداء التي تبعثرت فيها خمسمائة مليون مجرة في كل منها آلاف المجموعات الشمسية كمجموعتنا

وأكبر.. ستجتاز هذه كلها في يوم واحد، لكنه ليس كأيامنا، إنه بحساب أيامنا يبلغ ثمانية عشر مليون وربع المليون يوماً.. ولكنه يوم كوني، أشار إليه (آينشتاين) في نسبيته تلك التي قادته الى آفاق جديدة رحبة في ميدان العلوم الطبيعية والرياضية.

وأذكر مرة، أني كنت أستمع إلى ندوة تلفزيونية علمية، وتحدث أحدهم عن جوانب من هذه النظرية، وقال فيا قال: إن وصول انسان ما إلى إحدى المجرات، وسماها، يحتاج الى خمسمائة سنة ضوئية.. وان هذا الانسان نفسه اذا تيسر له جهاز ينقله عبر الفضاء بسرعة الضوء فإنه سيختزل هذه المدة الشاسعة الى ما يقرب من خمسين سنة فحسب!!

إن الملائكة والروح المتخففف من أعباء الجسد وشد الأعضاء، لا يعجزها أن تفوق في حركتها سرعة الضوء، ومن ثم فهي تعرج الكون كله في طريقها إلى خالق الكون جلّ وعلا في يوم واحد في حساب حركتها الزمنية عبر الكون.. لكنه في حسابنا؟! ومن ثم ينادي الله في علاه رسوله الكريم، وهو يشقى بدعوة أُناس يرون يوم الحساب بعيداً كبعد السراب: ﴿فاصبر صبراً جميلاً. إنهم يرونه بعيداً. ونراه قريباً﴾!!

(٦)

وهذا يقربنا بعض الشيء من فهم حادثتين زمنيتين عرضهما علينا القرآن الكريم في سيرة نبيين من أنبيائه عليهم السلام، تكريماً لهما وتقديراً.. حادثة نقل عرش بلقيس من أقصى الجنوب الى أقصى الشمال في جزء من لحظة.. وحادثة الاسراء بالرسول عليه السلام من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ثم العروج به الى رحاب الكون في ليلة واحدة أو جزء من ليلة!!

نقرأ عن الاولى ﴿قال: يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين؟ قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك واني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فلما رآه مستقراً عنده قال: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم. قال: نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون؟ فلما جاءت قيل: اهكذا عرشك؟ قالت كأنه هو. واوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين: النمل ٣٨ - ٤٢﴾.

ألا تلفتنا في هذا العرض عبارات كهذه (عنده علم من الكتاب) (وأوتينا العلم من قبلها) ثم الا يثير تساؤلنا تفوق

(الانسان) الذي عنده علم من الكتاب على (العفريت)، وتمكنه من اختزال عملية النقل من ست ساعات الى سدس اللحظة؟! وربط سليمان إتيانه العلم من قبلها بكونه مسلماً، أي منقاداً لأمر الله وسننه ونواميسه؟ ثم الا يعني هذا كله أن منح (علم الكتاب) لرجل أو عفريت أو نبي أو ملك هو اطلاعه على الدستور الرياضي والطبيعي لقوانين السماوات والأرض ومن ثم (تسخيرها) إلى أقصى مدى ممكن لتحقيق منجزات زمنية ومكانية خارقة؟

إن الناس قبل أن يسخروا قوى البخار والكهرباء والذرة، كانوا يقطعون المسافة بين بغداد والقاهرة بشهرين أو ثلاثة، ولو قيل لهم حينذاك إن بإمكان الانسان - لو حظي بمزيد من العلم بنواميس الطبيعة وسننها - أن يختزل هذه المدة إلى أيام وإلى ساعات.. فإنهم سوف لن يصدقوا وسوف يتهمون المتسائل بالجنون، أو بشطط الخيال على أقل تقدير.. ومضت الأيام والسنون وسخر البخار والكهرباء والذرة، وصرنا نصل الى أقصى أطراف الارض بساعات معدودات ونجتاز الارض صوب القمر، ونتطلع للذهاب الى ما هو أبعد في مجموعتنا الشمسية، في يوم قريب أو بعيد.. ولو قال لنا قائل الآن إنه سيجيء يوم يكشف فيه العلماء عن مزيد من (السنن والقوانين) الطبيعية والرياضية، وأنهم سيتمكنون

بذلك من صنع أجهزة تنقل الانسان الى القمر في ساعتين أو ثلاث لاتهمناه بالجنون، أو بشطط الخيال على أقل تقدير..

ولكن ذلك اليوم سيجيء.. وسيجيء حتماً.. طالما كان هنالك سعي دائب للكشف عن مزيد من جوانب العلم الذي تسير به السماوات والارض..

وكثيراً ما يقول القائلون ويكتب القصاص ويخرج المخرجون روايات عن محاولات تجري لنقل الأجسام والأشياء من مكان الى مكان بعيد بسرعة كسرعة الضوء، بعد تفكيكها الى تكويناتها الذرية الاولى، وإعادة تركيبها في المكان الذي استقرت فيه متحدية حواجز المكان والزمان.. وهذا الأمر - كذلك - لا يستبعد أن يتحقق في يوم قريب أو بعيد.. وهل كان بإمكان أحد قبل قرنين أن يصدق أن بإمكان (قنبلة) لا تتجاوز حجم كتاب، عوملت فيها الذرات التافهة الحقيرة معاملة خاصة معقدة، أن تدمر مدينة كبيرة بأسرها وتمحقها محقاً من الوجود في دقائق ولحظات؟!

إن القوانين والسنن الطبيعية التي تسيِّر السماوات والارض الى غاياتها المرسومة في علم الله والطاقات التي تحتويها هذه الكتلة الكونية، هي، هي، في كل زمان.. والذي يتاح له

الاطلاع على بعض جوانبها وفاعلياتها يستطيع أن يأتي بالعجب العجاب، وأن يتحدى الوقائع المألوفة ويتجاوز تحديات المكان والزمان.. فكيف وأن هذا (العلم) يمنح مباشرة من الله سبحانه، معززاً بإرادته التي لا تغلب، لذلك الرجل الذي (عنده علم من الكتاب) أو إلى نبي كسليمان عليه السلام، هل يعجزهما أن يأتيا بعرش بلقيس عبر آلاف الاميال في جزء تافه ضئيل من لحظة زمنية؟!

(٧)

ونقرأ عن الحادثة الثانية في سورة الاسراء ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير: ١﴾. ونقرأ في سورة النجم: ﴿ولقد رآه نزلة اخرى. عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى. اذ يغشى السدرة ما يغشى. ما زاغ البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى: ١٣ - ١٨﴾. وفي صحيح البخاري نقرأ: عن مالك بن صعصعة أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال: (... ثم اتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، قال الرواي: وهو البراق، يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا... الى آخر الحديث الشريف)..

لقد امتطى رسولنا الكريم ﷺ - اذن - براقاً، انطلق به من القدس ليجتاز به امداء الكون صوب (سدرة المنتهى) حيث (جنة المأوى).. من أجل أن تتاح للرسول عليه السلام فرصة نادرة المثال لرؤية جوانب من الملكوت عن كثب، تكريماً لهُ وتقديراً.

ان (البراق) هذا المخلوق المجهول، الذي يضع خطوه عند أقصى طرفه، والذي قطع المسافات الشاسعة في ليلة واحدة، أو جزء من ليلة، وربما في لحظات خاطفة، يشتق اسمه من عالم الضوء والكهرباء، وهي تسمية ذات مغزى عميق جاءت في عصر لم يكن فيه أحد يعرف شيئاً عن قوانين الضوء وسرعته وطاقات الكهرباء وامكاناتها.. وهي لعمري رمز، ما بعده رمز، للتعبير عن الانسجام الكامل بين رحلة الرسول ﷺ وبين سنن العلوم وقوانينها.. تلك الرحلة التي لم يرد لها أن تكون اعجازاً يفحم المشركين بعد اذ لم تقنعهم معجزة القرآن ذاتها، بقدر ما أُريد لها أن تكون رحلة تكريم يطلع فيها الرسول ﷺ على أطراف الكون الذي أبدع الله صنعه وأتقن حبكه.. وان كان من بديهيات القول ان بامكان الله سبحانه أن يتجاوز السنن والقوانين في أية لحظة يشاء لأنه جلت قدرته صانع السنن والقوانين.. لكن هذه الحقيقة الكبيرة لا تمنعنا من القول بأن رحلة الرسول ﷺ يمكن أن تجد لها

تفسيراً وتحليلاً حتى على نطاق الطبيعة والرياضيات!!

وفي صبيحة اليوم التالي، عندما تحدى مشركو مكة الرسول عليه السلام أن يصف لهم بيت المقدس، ان كان رآه حقاً، طفق الرسول يصفه وكأنه معروض عليه عرضاً: أزقته وأسواقه، وباحاته وكنائسه وطرقاته.. عن جابر قال: قال رسول الله: (لما كذبتني قريش قمت في الحجر، فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه).. وأنا أنظر اليه!! لحظة من لحظات تجاوز الابعاد والحواجز الزمانية والمكانية، تعتمد السنن نفسها التي نقل فيها عرش بلقيس من أقصى الجنوب وأُسري بالرسول عليه السلام الى أقصى الشمال، وعرج به في ليلة أو جزء من ليلة الى أقصى الكون.. السنن التي جعلت عمر بن الخطاب فيما بعد يصرخ وهو في مسجد المدينة: (يا سارية الجبل.. الجبل..).. سارية الذي كان يقاتل في العراق ويتعرض وجنده لكمين قاتل!!

(٨)

وكما أن لعوالم الطبيعة قوانين وسنن من (علم) بها تمكن من اجتياز العقبات الظاهرية والوصول الى أهداف كانت تبدو لأول وهلة عسيرة التحقيق، تفوق حدود الخيال.. كذلك الحال في عوالم الروح والارادة التي تحكمها هي الأخرى

قوانين وسنن اراد لها الله أن تنظم الطاقات الروحية في الكون كما تنظم قوانين الجاذبية والنسبية طاقاته المادية.. الا أن الكشف عن هذه السنن الروحية وتلمسها أصعب من الكشف عن قوانين الطبيعة والمادة بما يفوق القياس والاحصاء.. لأننا اذا أمكننا أن نطل على الطبيعة من نوافذ حواسنا الخمس، فان الاشراف على عالم الروح لا يتحقق بهذه السهولة، ولا يتيسر الا للقلة القليلة التي تتمكن برياضتها الدائمة أو بمعونة الله سبحانه أن تكشف عن جوانب من سنن الروح، فتسخرها وتصنع بها الأعاجيب.. ولذلك لما سئل الرسول عن الروح: ما هي؟ وما كنهها؟ وما طبيعة السنن التي تحكمها؟ قال له الله سبحانه ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم الا قليلا﴾.

وعن طريق هذا التكشف لبعض سنن الروح، الذي يجيء عن رياضة ومراس كما هو الحال بالنسبة لغير المسلمين (بعموم لفظ الاسلام)، أو عن امداد إلهي كما هو الحال بالنسبة للمسلمين عامة ولمتصوفيهم على وجه الخصوص.. وهي قضية شبيهة وموازية تماماً للكشف عن قوانين الطبيعة التي يمكن أن يحظى بها علماء ملحدون،أو رجال وأنبياء يؤمنون بالله واليوم الآخر، كما حدث لسليمان ومحمد عليهما السلام.

عن هذه الطريق أمكن لكثير من الناس أن يعتمدوا هذا التكشف ويسيطروا به على قوانين الجسد وسنن الطبيعة، ويصلوا الى أهدافهم أو يحققوا فاعلياتهم بأساليب يعجز العلم الطبيعي عن تفسيرها وتحليلها.

(٩)

وأذكر - على سبيل المثال - ما حدث قبل سنتين.. فلقد قيل لطبيب حاز درجة الدكتوراه في الجراحة، ومارس عمله طويلاً وتمرس فيه.. إن جماعة من (أهل الدرباشة) جاءوا الى المدينة وراحوا يقدمون عروضهم في ادخال السيوف في بطونهم واخراجها من ظهورهم، وغرز المسامير الحديدية في خدهم الأيمن وإخراجها من الخد الآخر.. ومضغ الآنية الزجاجية وابتلاعها، على أصوات الطبول وفي غمرة من الادعية والابتهالات.. وهم يفعلون ذلك كله دون أن ينزف لهم دم أو يتمزق عضو.. فسخر (الدكتور الجراح) من ادعاءاتهم هذه وقرر أن يذهب بنفسه ليرى بأم عينه.. وماذا كانت النتيجة؟ قدم هؤلاء عروضهم كالمعتاد، وشده الطبيب واكتفى بالقول إن أمراً كهذا يحيره، ولا يجد له تعليلاً (علمياً) مقبولاً لأن هذه العروض تمثل تحدياً سافراً لعلوم الفسيولوجي ووظائف الأعضاء.. الى آخره!!

هذا أمر كثير الوقوع أمام أعيننا.. البوذيون الذين يمتنعون عن الطعام والشراب أشهراً طوالاً، أمر مسلم به، وما يحدث في حلقات ومختبرات تحضير الارواح والتنويم المغناطسي عجز عن رده الماديون والطبيعيون.. فكيف بأهل الخطوة وأصحاب الكرامات الذين يستمدون قدرتهم على الكشف الروحي من الله سبحانه، لا من رياضة ذاتية، أليس بإمكانهم أن يختزلوا المسافات الشاسعة بلحظات، ويجتازوا المدن والبلاد بخطوات؟!

ان الرسول الكريم عليه السلام يبين لنا في حديث قدسي أن العبد ما يزال يتقرب الى الله حتى يكون يد الله التي يضرب بها وعينه التي يرى منها، ثم ما يزال يتقرب حتى يصل الى تلك القمة الروحية السامقة التي تسخر الاشياء والاحداث والخلائق بارادة الله الفعال المريد..

ان الله سبحانه، صانع السنن والقوانين في عالمي الروح والطبيعة، يهب بعض عباده هذه القدرة (الخارقة) التي يتمكن بها العبد من طبيعته الخاصة ومما يحيط بها من اشياء وموجودات فيصنع المستحيل.. وتبدو هذه المستحيلات (خوارق) بالنسبة لاناس ينظرون من الخارج، لكن القضية بالنسبة للعبد لا تعدو أن تكون قضية (علمية) تعتمد قوانين

الروح وطاقاتها لتسخير الاشياء والموجودات.. ولتحطيم الحواجز الخارجية للزمان والمكان!!

(١٠)

لقد كشف العلم الطبيعي نفسه، في العقود الأخيرة، ومن خلال تحليله لخواص المادة وتوغله في تركيبها الباطني، عن حقيقة خطيرة هي أن الطاقة أو الحركة انما هي قاعدة المادة وأساس الاشياء وان تركيب الذرات وما تحتويه من تكوينات أدق كالنيوترونات والبروتونات، وما تضمه هذه من تركيبات أشد دقة وضآلة، يؤول في نهاية المطاف الى طاقة حركية غير مادية هي التي تتشكل منها الذرات والجزيئات، وهي التي تصوغ، في سرعتها وابطائها وطبيعة حركتها، أشكال الاشياء الصلبة والسائلة والغازية.

فاذا كانت الوحدة الاساسية للبناء الطبيعي المادي قد تكشفت عن الحركيـــــة اللاماديـــــة، أفـــــلا يمكن القول - اذن - بأن الطاقة الروحية التي تتميز بالوعي والانفصال والامتثال والاستشراف والارادة، يمكن أن تتعامل مع هذه الطاقة (اللامادية) بشكل من الاشكال وتطوعها لأمرها، فتذعن وتلبي؟! ان اشارة ضوئية غير ملموسة توجّه في عصرنا الحاضر مركبة فضائية في غاية التعقيد الى هدفها في ظروف تقرب من المستحيل.. أفلا يمكن

لاشارات الروح أن تحقق في عالم الطبيعة ما هو أكثر استحالة واعجازاً ؟!

ان انهيار الأساس المادي للأشياء الذي كشف عنه العلم أخيراً، يقربنا خطوات من فهم وادراك طبيعة التعامل بين الروح والمادة، ولكنها خطوات فحسب، ربما ستطلعنا على وحدة البناء الكوني، فوحدة خالقه جلَّ وعلا.. ولكنها لن تطلعنا بحال على كل ابعاد وخصائص الروح الانساني، ولا على كل سننه وقوانينه، هذا الروح الذي هو نفخة الله في الطين، ومصدر الحياة والفكر والارادة والتقدم، سيظل مستغلقا على الادراك والتحليل الكاملين، لأن خلافتنا على الارض لا تقتضي هذا التكشف الكامل، ولأن المقادير (الضئيلة) التي يمنحنا الله اياها في عالم الروح توازي في فاعليتها المقادير الضخمة التي مكننا من معرفتها في عالم الطبيعة.. وهذا التوازن الحضاري الفذ بين الروح والمادة في ميدان الكشف والمعرفة هو ما يقودنا القرآن اليه في حشد كبير من الآيات التي تدعونا الى أن نفتح كل منافذنا على الطبيعة لاستكشاف قوانينها وطاقاتها وتسخيرها لتنمية الحياة البشرية وتطويرها.. يقابل هذا الحشد آيةٌ واحدة تقول: ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أُوتيتم من العلم إلا قليلا﴾.. وصدق الله العظيم.

مواقف لخريجي مدرسة القرآن

ان تاريخ أية أمة من الأمم يضم في ثناياه تقييمه العادل من خلال ما يقدمه من (مواقف) لخدمة الانسان وقضيته في الارض .. ان ظروف الزمان والمكان ومواصفات البيئة والطبيعة تفعل فعلها في توجيه التاريخ، لكن صياغته النهائية وتخطيطه تبقيان أبداً بيد الانسان، وتنتظران دوماً أوامر الارادة البشرية لكي تلبيا وتخضعا. ومن خلال (الموقف) الذي يتخذه الانسان في لحظات التساؤل والاختيار والوقوف عند مفارق الطرق، يأخذ الحدث التاريخي أو الواقعة التاريخية مسارها ومجراها. وكلما كانت تلك (المواقف) أكثر استشرافاً وشمولاً وتحرراً من الضغوط المباشرة وأثقال الواقع وجزئياته الصلبة المغلقة، كلما جاءت الحركة التاريخية بمثابة خطوات صوب الامام تبارك الانسان وتسعده وتزكيه وترفعه صعداً عن عالم النمل والنحل والحيوان!!

ولسنا هنا بصدد (دراسة) أبعاد الموقف الانساني وعلاقته بالحدث التاريخي، لكننا نريد فقط تسليط الأضواء على مواقف بعض قادة الفكر في تاريخنا ورواده من قضية شرف الانسان وحريته وسعادته، ورفع كرامة (الفكر) البشري الى المصاف العليا التي لا ينزله من عليائها طغيان طاغ أو غزو غاز أو تجبر حاكم امي لم يقرأ يوماً باسم ربه الذي خلق.. ولم يمسك قلم المعرفة كي يتعلم. وما أكثر مواقف العلماء في تاريخنا وما أروعها وأشرفها!! انها - والحق يقال - مراكز الثقل في ساحة هذا التاريخ الذي لا يكف عن التمخض والحركة. ونجوم سمائه الدنيا المعلقة، تنير للسالكين عبر الظلمات معالم الطريق، وتتوهج حتى تكاد تذوب بالنور وتحترق بالنار.. ولن يقف أمام عالم اختار ضياء العرفان وقبس من حريق الفؤاد. أي شيء.. فقط اذا اعتزم أن يقف الوقفة المناسبة في الوقت المناسب والمكان الملائم..

ان تراجم نصف مليون رجل فكر في تاريخنا عدد يحسدنا عليه مفكرو الأمم الأخرى،فكيف لو اطلعوا على مواقف واحد واحد منهم، دفاعاً عن حق، وصموداً أمام غزو قاهر، وهتكاً لبراقع زيف يريد أصحابه أبداً أن يطمسوا به نقاء الاشياء ومبررات الوجود الانساني في الارض؟.. كيف لو تفحصوا الأدوار التي لعبها هؤلاء في مسرح تاريخنا الاسلامي.

والنتائج العظيمة التي جاءوا بها كل في حقله، وهي نتائج تتعدى أطر الزمان والمكان صوب القيم الخالدة. وتجاه موضع الانسان الذي كرمه الله على الارض واستعمره فيها؟

ان أبا عبدالله بن محمد بن غانم الأصبهاني الذي قدم بغداد في العقود الاولى من القرن السابع الهجري. شاباً في عز الشباب، أسهم في ميدان التفسير اسهاماً عميقاً. يقف مناديا (المحبين) من امته. في عصر كان في أمس الحاجة الى نداء يهز وجدان الناس ويحركهم صوب الاهداف التي راحت تتأرجح أمام وقع سنابك الخيول التترية. صوت يبعثهم من جديد ويقودهم الى التخوم دفاعاً عن مصير الامة وحماية لشرفها الحضاري.. ان أبا عبدالله يريد أن يقول لهم أن يحبوا الله وأن يذوبوا شوقاً وغراماً.. انه يريد أن يبين لهم مواقعهم في الارض، وكم هو تافه سخيف الركون الاعمى الى حفنة من تراب يتحرك الانسان عليها، ويختنق فيها، ويأكله دودها وسوسها.. « العالم كالذرة - يقول أبو عبدالله - في فضاء عظمته. والذرة كالعالم في كتاب حكمته. الاصول فروع اذا تجلى جمال أوليته. والفروع أصول اذا طلعت من مغرب نفي الوسائط شمس اخريته. أستار الليل مسدولة. وشموع الكواكب مشعولة، وأعين الرقباء عن المشتاقين مشغولة. وحجاب الحجب عن أبواب الوصل معزولة. ما هذه الوقفة

والحبيب قد فتح الباب؟ ما هذه الفترة والمولى قد خرق حاجب الحجاب؟

وقوفي بأكنـــاف العقيـــق عقوق
إذا لم أرد والدمـــع فيـــه عقيـــق
وإذْ لم أمت شوقاً إلى ساكن الحمى
فما أنـــا فـــيما أدعيـــه صـــدوق
أيا ربع ليلى ما المحبون في الهوى
سواء، ولا كـــل الشراب رحيـــق
ولا كـــل من تلقـاه يلقـاك قلبـه
ولا كـــل من يخطو إليـــك مشوق
تكاثرت الدعوى على الحب فاستوى
أسير صبابـــات الهوى وطليـــق

ويستمر أبو عبدالله واعظاً جماهير بغداد «ايها المؤمنون، هل فيكم من يصعد الى السماء؟ ايها المحبوسون في مطامير مسمياتهم، هل فيكم سليم في الفهم يفهم رموز الوحوش والاطيار؟ هل فيكم موسوي الشوق يقول بلسان شوقه: أرني أنظر اليك فقد طال الانتظار؟» ثم ما يلبث أن يهزه الشوق وتحرقه النار، فيصرخ فيهم: أيها النائمون تيقظوا!![1]

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٨٣/١٣.

وفي مطلع القرن ذاته (٦٠٦ هـ) كان سبط بن الجوزي يقف في جامع دمشق يعظ ويحث على الغزاة والمقاومة ضد الغزو الصليبي.. واذا كان أبو عبدالله يريد من موقفه ذاك في بغداد أن يهز أعماق الناس ويصغر في أعينهم قيمة الحياة الدنيا من أجل أن يتحركوا صوب عظائم الأمور دون خوف من موت أو رهبة من أذى أو عقاب.. فإن حفيد ابن الجوزي الشهير، يتحرك بهم فعلاً صوب ساحات القتال والجود بالمال والنفس، دفعاً لعدو غاصب وتحريراً لأرض مغتصبة.. يقول ابن العماد في شذرات الذهب «وتجمع حوله الناس من باب الساعات الى مشهد زين العابدين، واجتمع عنده شعور نساء كثيرة، وقطعت احدى النساء شعرها وبعثت به اليه وقالت اجعله قيداً لفرسك في سبيل الله.. فعمل من الشعور التي عنده مجتمعة شكلاً لخيل المجاهدين.. وعندما صعد المنبر أمر بإحضارها فكانت ثلاثمائة شكال، فلما رآها الناس صاحوا صيحة واحدة وقطعوا مثلها. وكان والي دمشق وكبار الاعيان حاضرين، فلما نزل السبط من المنبر قام والي دمشق ومشى معه وركب، وركب الناس وخرجوا الى باب المصلى وكانوا خلقاً لا يحصون كثرة وساروا الى نابلس لقتال الفرنج، فأسروا وهزموا وهدموا وقتلوا ورجعوا سالمين

غانمين.....»[٢].

ويقف أبو الوفاء بن عقيل (٤٨٨ هـ) متحدياً ارادة الوزير السلجوقي ابن جهير ناقداً تدهور الأوضاع الاجتماعية والسلوك الاخلاقي خلال اشتغال الناس في بناء أحد أسوار بغداد.. وبينما يكافح أبو عبدالله في ميدان النفس. ويجاهد سبط بن الجوزي في الجبهة الخارجية. يقف ابن عقيل بوجه موجة من موجات الانحلال في الداخل في قلب المجتمع الاسلامي ويكتب الى الوزير «لولا اعتقادي صحة البعث وان لنا داراً أخرى لعلي أكون فيها على حال أحمدها لما بغضت نفسي الى مالك عصري، وعلى الله اعتمد في جميع ما أورده بعد أن أشهده اني محب متعصب. لكن اذا تقابل دين محمد ودين بني جهير فوالله ما أزن هذه بهذه. ولو كنت كذلك كنت كافراً. فأقول ان كان هذا الخرق الذي جرى بالشريعة عن عمد لمناصبة واضعها فما بالنا نعتقد الختمات ورواية الاحاديث؟.. ترى بأي وجه تلقى محمداً ﷺ بل لو رأيته في المنام مقطباً كان ذلك يزعجك في يقظتك. وأي حرمة تبقى لوجوهنا وأيدينا وألسنتنا عند الله اذا وضعنا الجباه ساجدة، ثم كيف نطالب الاجناد تقبيل عتبة ولثم ترابها ونقيم الحد في

---

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ١٨/٥.

دهليز الحريم صباحاً ومساء على قدح نبيذ مختلف فيه؟!! يا شرف الدين اتق سخط الله فإن سخطه لا تقاومه سماء ولا أرض. فإن فسدت حالي بما قلت فلعل الله يلطف بي ويكفيني هوائج الطباع. ثم لا تلومننا على ملازمة البيوت والاختفاء عن العوام لأنهم لو سألونا لم نقل الا ما يقتضي الاعظام لهذه القبائح والانكار لها... فاتق الله تقوى من علم مقدار سخطه فقد قال ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. ٥٥ الزخرف﴾. وقد ملأتكم في عيونكم مدائح الشعراء ومداجاة المتمولين بدولتكم، الاغنياء الاغبياء الذين خسروا الله فيكم فحسنوا لكم طرائقكم. والعاقل من عرف نفسه ولم يغيره مدح من لا يخبرها..»[٣].

ان أبا الوفاء لا يجابه في موقفه هذا السلطة الحاكمة فحسب، ويخوفها غضب الله وسخطه، لكنه يسعى الى تعرية التناقضات التي تعانيها بين الشكل والواقع والظاهر والباطن.. وأكثر من هذا، انه يصب وعيده على ظاهرة النفاق الاجتماعي الذي تسرب الى النفوس حرصاً على الدنيا وتهافتاً على لذاتها.. فالشعر يرخص ويبتذل حتى يغدو مديحاً

---

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٨٥/٩ - ٨٦.

خاوياً ينشد في حضرة المسؤولين، يزيف الحقائق ويغنى على حسابها.. والاغنياء - الاغبياء - وما أروعها من لفتة (وليقرأها دعاة الثورية الماركسية التي ترفض تاريخنا وديننا كلية).. خسروا أنفسهم، فراحوا يداجون، ليحلوا للحكام ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله تزييناً لطرائق الحاكمين ووصولا الى مزيد من أكوام الذهب والفضة..

وفي مواجهة زيف الشعر وبلادة الغنى يقف أحمد بن موسى الزرعي، أحد كبار تلامذة ابن تيمية، عاملا كادحاً، ينسج بيده عباءات الصوف لكي يتقوت منها ويرفض طيلة حياته أن يقبل من أحد شيئاً!! وينطلق من كدحه وتجرده هذا لكي يجابه بكلمة الحق ملوك وأمراء مصر والشام، فيزور القاهرة مراراً ولا يعود الا وقد أُجيب الى كل ما أراد «فأبطل أشياء من المظالم وانتفع الناس به كثيراً» وماذا تكون النتيجة؟ «أن يكرهه الكثير من أهل الدولة ولا يتهيأ لهم رده فيما يطلب»[٤]؛ ذلك أن جماهير الناس تقف معه.. ومع الطرفين - العالم والامة - يقف الحق الذي لايغلب..

وما دمنا بصدد فكر مؤمن متجرد كادح.. كما أراد له الرسول(ﷺ) أن يكون.. ما دمنا بصدد أناس آلوا على

---

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة ١/٣٢٤.

أنفسهم أن يحموا كرامة (مواقفهم) بنسج عباءات الصوف وخصف النعال.. ما دمنا بصدد زعماء أدركوا بعمق أنه ليس بالفكر يغنى الناس ويكون الشبعان والجائع والغني والفقير والمتخم والمحروم.. فلنستمع الى ابن شبرمة اذن وهو يقول «عجباً لهذا الرازي - جرير بن عبد الحميد - عرضت عليه أن أجري عليه مائة درهم في الشهر من الصدقة. فقال: يأخذ المسلمون كلهم مثل هذا؟ قلت: لا، قال: فلا حاجة لي فيها»[5].. ولنستمع الى الجنيد وابن مسروق وهما يقولان «ان حسنا المرحي كان أول من عقدت له الحلقة ببغداد. وكان استاذ أكثر البغداديين، لم يكن له منزل ببغداد يأوى اليه، وكان يأوى بباب الكناس في مسجد يكنه من الحر والبرد»[6].. ولنستمع الى عيسى بن موسى بن محمد بن المتوكل يحدث عن نفسه «مكثت ثلاثين سنة أشتهي أن أشارك العامة في أكل هريسة السوق فلا أقدر على ذلك لأجل البكور الى سماع الحديث»[7]..

وماذا عن الشيخ عبد القادر الجيلاني، الزعيم الصوفي

---

(٥) الخطيب: تاريخ بغداد ٢٥٨/٧.

(٦) المصدر السابق ٣٦٧/٧.

(٧) المصدر السابق ١٧٨/١١.

الكبـير؟ استمعوا اليـه « طالبتـني نفسي بشهوة فكنـت أضاجرها وأدخل في درب وأخرج الى درب أطلب الصحراء. فبينما أنا أمشي اذ رأيت رقعة ملقاة فاذا فيها: ما للاقوياء والشهوات؟ انما خلقت الشهوات للضعفاء يتقوون بها على طاعتي. فلما قرأتها خرجت تلك الشهوة من قلبي.. ولقد فتشت الاعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام. أود لو أن الدنيا بيدي فاطعمها الجياع »!!

وستظل عبارة الجيلاني، أبد الآبدين، علامة شرف لفكرنا الاسلامي وعدل لتاريخنا العقائدي، كما ستظل أبد الآبدين لعنة على المتسولين على موائد الغرب يرددون، بغباء وعمى منقطعي النظير، عبارات يهودي قالها يوماً دونما تفحص لمسيرة الأديـان وأتبـاع الأديـان في كـل مكـان (الـدين أفيون الشعوب).. وأسألكم بالله كيف يكون ديننا أفيوناً للمحرومين وهـذا زعـيم من زعمائه يعيش جائعـاً كادحـاً.. محروماً، وبإمكانه - في لحظات - أن يخوض الى ركبتيه في أنهار الذهب والفضة ويخدع. ويخدر، باسم الدين، أعصاب اولئك الذين اعتصروا دمائهم وعرقهم، فضة وذهباً.. أسألكم بالله كيف يكون الدين أفيوناً وهذا الجيلاني يقول (أود لو أن الدنيا بيدي فاطعمها الجياع)؟!

ان فكراً حراً من زيف المادة وتخدير الترف الفاحش واستعباد الدرهم والدينار لقدير على أن يظل دوماً في (موقفه) العالي لا ينزل أبداً لاستقبال (عظيم). ولا يمد يده تملقاً لامبراطور أو ملك أو أمير.. ان أبا عبيد يحدثنا فيقول «كنا مع محمد بن الحسن اذ أقبل الرشيد فقام اليه الناس كلهم الا محمد فإنه لم يقم. فسأله: ما لك لم تقم مع الناس؟ فأجاب: كرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها. انك أهلتني للعلم فكرهت أن أخرج منه الى طبقة الخدمة التي هي خارجة عنه»[8].. لله درك يا ابن الحسن!ان العلم الشريف لا يمكن أبداً أن يخرج الى طبقة الخدمة والتمسح على الاعتاب.. انه يوم يخرج الى هناك. لا يكون علماً.. ولكنه يغدو زيفاً وتذللاً.. وأفيوناً!!

واذا كنا في الصفحات السابقة قد استعرضنا عدداً من المواقف استعراضاً افقياً، فما أروع أن نختم هذا البحث الموجز بعرض (عمودي) لمواقف واحد من علمائنا الذين لا يحصيهم العد. يحدثنا عنه ابن العماد[9]، وهي مواقف ذات أبعاد شتى. اجتماعية وسياسية وروحية وانسانية تتلاءم وتنسجم جميعا في

---

(٨) المصدر السابق ٢/١٧٣.

(٩) شذرات الذهب ٧/٢٧ - ٣٠.

تكوين شخصي متجرد ذكي رقيق شجاع رائع، طالما عودنا تاريخنا على الالتقاء به في كل زمان ومكان.. انه الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة الحنبلي المقدسي.. ولد بجماعيل في فلسطين عام ٥٢٨ هـ، وهاجر الى دمشق لاستيلاء الصليبين على الارض المقدسة، وسمع الحديث على الكثيرين، وقرأ القرآن والفقه، وكان إماماً فاضلاً مقرئاً زاهداً عابداً خاشعاً، كثير النفع لخلق الله، ذا تهجد واجتهاد وأوقات مقسمة على الطاعات من الصلاة والصيام والذكر وتعلم العلم والفتوى والمروءة والخدمة والتواضع، فلقد كان عديم النظير في زمانه.. هاجر الى مصر، ورجع، وكتب كثيراً من الكتب والمصاحف، وكان يكتب للناس بغير أجرة، وكان سريع الكتابة ربما كتب في اليوم كراسين من القطع الكبير.. وكان الله قد جمع له معرفة الفقه والفرائض والنحو، مع الزهد والعمل وقضاء حوائج الناس.. وكان لا يسمع حديثاً الا عمل به، وكان لا يترك قيام الليل من وقت شبابه.. ومات وهو عاقد على أصابعه يسبِّح.

وحدثت زوجته أنه كان يقوم الليل فإذا جاءه النوم عنده قضيب يضرب به على رجليه فيذهب عنه النوم.. وكان لا يسمع بجنازة الا حضرها ولا مريض إلا عاده ولا بجهاد الا خرج فيه.. وكان لا يخرج الى الجمعة الا ومعه شيء يتصدق

به وكان يؤثر بما عنده لأقاربه وغيرهم ويتصدق كثيراً ببعض ثيابه حتى يبقى في الشتاء بجبة بغير قميص. وكانت عمامته قطعة بطانية فإذا احتاج أحد الى خرقة قطع منها.

وكان يلبس الخشن وينام على الحصير. ومكث مدة لا يأكل أهل الدير الا من بيته، يجمع الرجال ناحية والنساء ناحية، وكان اذا جاء شيء الى بيته فرقه الى الخاص والعام. وكان يقول: لا علم الا ما دخل مع صاحبه القبر، ويقول: اذا لم تتصدقوا لا يتصدق أحد عنكم واذا لم تعطوا السائل أنتم أعطاه غيركم. وكان اذا خطب ترق القلوب وتبكي الناس بكاء كثيراً. وكانت له هيبة عظيمة في القلوب..

واحتاج الناس الى المطر في احدى السنين فطلع الى (مغارة الدم) ومعه نساء من محارمه، واستسقى ودعا فجاء المطر حينئذ، وجرت الاودية شيئاً لم يره الناس من مدة طويلة.. كان معتدل القامة، حسن الوجه،عليه أنوار العبادة، لا يزال مبتسماً، نحيل الجسم من كثرة الصيام والقيام. وكان يحمل الشيح من الجبل الى بيوت الأرامل واليتامى، ويحمل اليهم في الليل الدراهم والدقيق، ولا يعرفونه! ولا نهر أحداً، ولا أوجع قلب أحد. وكان أخوه الموفق العلامة يقول: هو شيخنا، ربانا وأحسن الينا وعلمنا وحرص علينا، وكان

للجماعة كالوالد يقوم بمصالحهم، ومن غاب منهم خلفه في أهله. وهو الذي هاجر بنا وسفرنا الى بغداد، وبنى الدير!! ولما رجعنا من بغداد زوجنا وبنى لنا دوراً خارجة عن الدير وكفانا هموم الدنيا، وكان يؤثرنا ويدع أهله محتاجين. وبنى المدرسة والمصنع بعلو همته، وكان مجاب الدعوة، ما كتب لأحد ورقة للحمى الا وشفاه الله تعالى.. وذكر جماعة أن كآبة غشيت وجهه قبل موته بست سنين، وقال عنه سبط بن الجوزي: كان على مذهب السلف الصالح، حسن العقيدة، متمسكا بالكتاب والسنة والآثار المروية، من غير طعن على ائمة الدين وعلماء المسلمين،وينهي عن صحبة المبتدعين ويأمر بصحبة الصالحين..

ولما كان عشية الاثنين الثامن من ربيع الاول سنة ٦٠٧ هـ جمع أهله واستقبل القبلة وأوصاهم بتقوى الله تعالى ومراقبته، وكان آخر كلامه (ان الله اصطفى لكم الدين، فلا تموتن الا وأنتم مسلمون)، وما لبث أن توفي دون أن يخلف قليلاً ولا كثيراً.. وكان يوماً مشهوداً!!

***

تلك هي شذرات من آلاف (المواقف) التي صنعت تاريخنا وميزته على تواريخ الأمم والشعوب، ومنحته لونه وطعمه

ورائحته... ان كتب (التراجم) وما أكثرها وأحفلها وأغناها، تضم بين ثناياها الكثير من مواقف كهذه بأبعادها الانسانيـة المختلفة، اجتماعيـة وسياسية وفكرية وروحية.. ومقارنة بسيطة بين رجال الفكر في عصور العقيدة والابداع وبينهم في عصور التحلل والتقليد ترينا هوة سحيقة، ومحزنة في الوقت ذاته، بين أجيال من قادة العقيدة والفكر قادوا أمتنا عبر المحن والملمات في ميادين النفس والمجتمع والعالم، وبين أجيال من رواد العقيدة والفكر، اجتازوا بها في فترات أخرى المضائق والمنعطفات الوعرة. ولا أظن، ولا يظن أحد، أنهم أخرجوها الى أرض الحرية الحقيقية والتوحد والعدل والانسجام..

ذلك أن مواقف الاولين وقيادتهم كانت تنبعث وتصدر عن عقيدة متوغلة في أعماق النفس، منبثة في شرايـين الفكر، متأصلة في عصب الوجود.. واليوم لا تصدر مواقف قادتنا - إلا مَنْ رحم ربُّك - سوى عن تقليد ميت مزيف، مهما ادعوا من انتماءاتهم العقائدية والايديولوجية. إن كل واحد من أولئك كان تمثيلاً وتشخيصاً حياً لأفكاره ومبادئه ودعوته، فكانت كلماتهم وتعاليمهم تنتشر في نفوس الناس انتشار النار في الهشيم، وهم يرون معلميهم رأي العين يقاتلون معهم اذا قاتلوا، ويجوعون معهم اذا جاعوا، ويبكون معهم اذا

بكوا، ويضحكون معهم اذا ضحكوا!! كانت العقيدة - كتجربة - تمتلك من القدرة والحيوية ما يحيل المعلم والتلميذ الى سيمفونية تجاوب وانسجام وحركة متناغمة مع الطبيعة والعالم والأشياء.. ومن ثم صنع المعلم والتلميذ تاريخاً ينبىء بالأصالة والتمخض والابداع.. وكانت القاعدة دوماً ترتكز على خشية الله وحبه. ومراقبته ورؤياه التي لا تفتر لحظة.. قاعدة لم يخب السائر عليها في يوم من الايام، وكيف يخيب من يحيل حياته كلها الى معطيات ترضي الله سبحانه ولا تثير سخطه وغضبه ونقمته؟!

ان كل عالم من علمائنا الألوف قدوة حية ما أحرانا أن نتأسى بها اذا ما أردنا أن نحصل ثانية على رضا الله، ونقدر ثانية على صنع تاريخنا ومجدنا.. ومهما ضللنا وتخبطنا وأخطأنا، فإننا لا بد وأن نصل يوماً، ما دمنا قد وضعنا خطانا على ذات الطريق الذي خطه على صفحة العالم رواد شرفنا وكرامتنا ومجدنا، فأعلنوا بمواقفهم تلك، انتصار الانسان، وتجاوزه عوالم النمل والنحل والحيوان!!

نحو آفاق تربوية

في عرض التاريخ الاسلامي على الشاشة الصغيرة..

(١)

ان التعامل مع تاريخنا الاسلامي، من خلال الأطر الفنية عموماً والعروض التليفزيونية على وجه الخصوص، يحقق - اذا ما استكمل شروطه الاساسية - نتائج قيمة على المستوى التربوي، فضلاً عما يقدمه لجمهور المشاهدين من متعة نفسية وحسية واشباع لنزعاتهم الجمالية الصرفة التي تؤول بدورها الى مردود ايجابي فعال.

ان سلم القيم التربوية التي ينشدها العمل التليفزيوني الهادف سلم واسع المدى كثير الدرجات. يمنح الاديب والفنان مقداراً واسعاً من الحرية والعفوية في الاختيار والتركيز دونما أي قدر من التوتر والوعظية والمباشرة.. ان بمقدوره أن يتحرك عبر هذا المدى الواسع لكي يقف عند هذه « القيمة » التربوية أو تلك، حيثما وجد في وقفته تساوقاً عفوياً منغماً مع

هيكل عمله الفني ومعطياته وجزئياته، وحيثما رأى تناسباً وانسجاماً في اللون والايقاع والتكوين بين ما يسعى الى تحقيقه وتعميقه وبين طبيعة نسيج ابداعه الفني: لحمته وسداه.

ونستطيع بقراءة ذكية لكتاب الله وسنة رسوله عليه السلام، وبتتبع عميق لحركة الجماعات الاسلامية عبر تاريخها الطويل، أن نتبين العديد من هذه القيم التي تصلح دونما تعسف لأن تكون محاور لأعمال فنية تليفزيونية مبدعة تعتمد وقائع وأحداث تاريخنا المزدحم الكثيف.

هنالك السعي من أجل تحقيق النقاء الروحي، وتأكيد التوازن الفعال بين العقل والروح والجسد، بين العلم والايمان.. وهناك العمل من أجل تنمية قيم البطولة وتعميق مواقف الرفض والثورة، يقابلها العمل من أجل التحقق بالصفاء والانسجام والاحساس الغامر بالتعاون مع سنن الكون والعالم ونواميسها وموجوداتها.. وغير هذا وذاك الكثير من القيم التي يتوجب غرسها وتنميتها في كيان الفرد المسلم والجماعة المسلمة من أجل تعزيز شخصيتها وتأكيد ذاتها الحضارية وتمكينها من الوقوف على قدميها لمجابهة صراع العقائد والأفكار والدول والحضارات في عالم يضيع فيه ويفنى من لا يملك شخصية ولا ذاتاً..

هنالك - على سبيل المثال لا الحصر - ضرورات الالتزام الخلقي بمفهومه الواسع.. الاستعلاء على الدنس والمغريات.. تكوين النظرة الشمولية التي ترفض التجزئة والتقطيع.. التوحد بين المعتقد والممارسة، أو النظرية والسلوك.. تنمية الحس الجمالي الخالي من الشوائب.. تغطية الفراغ الواسع الذي تمنحه الحضارة المعاصرة بترفيه منضبط.. تجاوز الرومانسية المريضة والذاتية المنغلقة من جهة، ورفض القطيعية البكماء والجماعية الصماء من جهة أخرى.. إدانة الهروب والانزواء أو الذوبان والاندماج.. هناك التنمية العاطفية والوجدانية وفق طرائق سليمة.. امتصاص وتصعيد الطاقة الجنسية المكبوتة.. حل وتفكيك الخوف والاحساس بالنقص وفقدان الثقة.. وسائر العقد والازمات النفسية التي تجنح بالشخصية عن الحد الادنى من السوية المطلوبة.. مجابهة القلق البشري المدمر ومنح اليقين.. مجابهة الاحساس العبثي الغاشم وطرح البديل الايماني في الغائية والجدوى.. وهناك - فوق هذا وذاك - تحقيق الاقتران الشرطي السليم بين الفن والقيم، وطرح بدائل اسلامية مقنعة لمعطيات الفنون الوضعية في ميدان القيم التربوية: البراغماتية. الوجودية. المثالية المادية...

ولن ننسى بطبيعة الحال ضرورات المجابهة الابداعية

لعمليات الهدم والتشويه والتدمير الصهيونية التي نستطيع أن نتلمس أبعادها في معطياتهم النظرية والتطبيقية على السواء.

انه سلم قيمي واسع الامتداد، كثير الدرجات، ما دام أن الاسلام جاء لكي يغطي تجربة الحياة البشرية بأسرها في امتداديها الأفقي والعمودي على السواء، وما دام أنه - أي الاسلام - كان، وسيظل، بمثابة موقف متكامل، ورؤية شاملة لدور الانسان في العالم. بكل ما تتضمنه هذه العبارة من معنى.

ومن ثم فإن لنا أن نتصور المدى الواسع الذي يمكن أن يتحرك فيه الفنان وهو يعتمد في مقابل هذا وقائع وأحداثاً تاريخية هي بمثابة عينات مكثفة لهذه التجربة البشرية أو تلك، ولهذا الموقف أو ذاك. وصولا الى دلالاته التربوية الهادفة.

(٢)

ومنذ أن وصل التليفزيون بلادنا، وانتشر في عواصمنا وأقاليمنا، وشاشته الصغيرة تشهد حشداً متزايداً من العروض الفنية التمثيلية أو المسرحية أو التشكيلية. التي تعتمد وقائع تاريخنا الاسلامي وأحداثه وتجاربه..

ولكن كم من هذه الاعمال حقق هدفاً تربوياً للملايين المشاهدين المتجمهرين حول هذا الجهاز عبر أوقات فراغهم، يحيط بهم أبناؤهم وبناتهم واخوانهم وزوجاتهم، الذين أصبح التلفاز بالنسبة اليهم بمثابة زائر يومي مؤثر لا يستطيعون مفارقته وغيابه؟؟

كم من هذه الأعمال أنشأ قيماً بنائية في نفوس الاطفال والصبيان، ونمى وعدل قيماً أخرى في نفوس الشباب، وحاور وداری قيماً ثالثة في نفوس الرجال والشيوخ والنساء؟

أكثر من هذا: كم من هذه الاعمال لم يمارس خطيئة بهذا الاتجاه أو ذاك. فيهدم قيما سهرت المؤسسات الاخرى كالعائلة والمدرسة والمسجد على خلقها وبنائها، وينشيء قيما أخرى نقيضة تماما تؤول في نهاية الامر الى عملية فوضى أخلاقية وتفكيك تربوي ودمار اجتماعي؟

ولن نتكلم هنا - بطبيعة الحال - عن الاعمال الفنية التاريخية الترفيهية الصرفة التي تعالج المواقف بأسلوب سطحي مباشر. فلا هي تبني ولا هي تهدم وتفكك. وانما يجيء مفعولها موقوتا بالمدى الزمني الذي تستغرقه. فلا تخلف بعد عرضها أثراً.

وهكذا نجد أنفسنا بإزاء مجموعة شروط تتوجب

ملاحظتها والاخذ بها اذا ما أردنا أن نشهد عرضا مسرحيا أو تمثيليا مستمداً من دائرة التاريخ الاسلامي ومستهدفا تحقيق نتائج ومردودات ايجابية، قد لا تكون المتعة الصرفة والاشباع الجمالي سوى جوانب محدودة منها فحسب.

وأول هـــــذه الشروط هو الالتزام: أن يمتلـــــك الفنان - أولا - تصوراً شاملاً متكاملاً صحيحاً للكون والحياة والتاريخ والانسان، من خلال الرؤية الاسلامية المتفردة، يوازيه انفتاح وجداني دائم وتوتر نفسي لا ينضب له معين إزاء الكون والحياة والتاريخ والانسان.. ومن بعد هذا يجيء الالتزام عفوياً، متساوقاً، منساباً.. علاقته بالابداع الفني لا تقوم مطلقاً على القسر والتكلف والاكراه، ولا تعترف أبداً بالمدرسية أو الوعظية أو المباشرة.

ان الالتزام بمفهومه الواسع هذا. والذي يرفض التسطيح والارشاد والخطابية. هو الذي يستطيع أن يتعامل مع وقائع التاريخ الاسلامي وأحداثه وتجاربه تعاملاً فنياً جمالياً أصيلاً. فلا يقف عند حدود الواقعة التاريخية يعرضها بتفاصيلها وجزئياتها. كما نشهد في الكثير من الاعمال التليفزيونية. الامر الذي يجعلها لا تعدو أن تكون «درساً» تاريخياً لا تتعمق اسقاطاته الضمائر والعقول والنفوس. وانما يتجاوز - الفنان الاصيل - الواقعة الى ما وراءها من قيم ودلالات ورموز

وارهاصات فيكثفها بقدرته على التركيز. ويشحنها بوجدانيته وتعبيريته. ويجعلها تمنحنا بعفوية بالغة. وبتأثير عميق في الوقت نفسه. المزيد من القيم التربوية البنائية التي تسهم - بشكل غير مباشر - في تنمية حياتنا واغناء خبراتنا وتعزيز شخصيتنا الحضارية وتأصيلها.

وثمة. حشد كبير من الفنانين الذين ينتمون لعدد من المذاهب الوضعية. وبخاصة المادية التاريخية. يعتمدون مفهوم الالتزام الفني لتأكيد وتعزيز قناعاتهم الخاصة على حساب معطيات التاريخ الاسلامي نفسه. ويخرجون على الناس بأعمال تليفزيونية. تمثيلية أو مسرحية. تحمل نفسا ماديا طبقياً صرفاً. كانوا على استعداد - من أجل بعثه في أحداث تاريخنا - لأن يغيروا حتى بداهات هذا التاريخ ويعيدوا صياغة مواده الأولية من أجل أن تعينهم على تكوين الصورة الفنية التي يلزمهم بها انتماؤهم المذهبي.. رغم أنها تند بكلياتها وتفاصيلها عن روح هذا التاريخ وملامحه وبنيته وشخصيته المتميزة. وملامحه المتفردة.

وهكذا يبدو أن الالتزام. كما هو الحال بالنسبة لكثير من المواقف البشرية. سلاح ذو حدين. ولن يكون وقوفنا بوجه هذا السيل التحريفي المدمر الذي يغير معالم تاريخنا بدلاً من أن يستعيدها ويستوحيها، والذي يدمر أسس تربيتنا بدلاً من

أن ينيها وينميها. لن يكون وقوفنا جاداً فعلاً الا بابداع مزيد من الاعمال الفنية الاسلامية الملتزمة من جهة، وتأكيد وتعميق معطياتنا النقدية، من خلال « نظرة اسلامية » في الجمالية والنقد، من جهة أخرى.

وفي مقابل هذا الالتزام « المعكوس » نجد حشداً من الفنانين الذين لا ينتمون لأي فكر أو عقيدة، يأتون الى ساحة التاريخ الاسلامي، فيختارون بعض وقائعه، ويعيدون صياغتها وتركيبها وعرضها فنياً من زاوية رؤية شخصية مزاجية حيناً، تجارية مرتزقة أكثر الأحيان.. فاذا بأخطر وقائع هذا التاريخ تتحول في جوهرها الى قصص حب جارف وغرام ملتهب يكون بمثابة السبب الأكبر والأهم وراء الاحداث والانجازات التاريخية الكبيرة بما فيها المعطيات العقيدية الصرفة.. واذا بالعديد من الشخصيات التاريخية التي نزفت - عبر كفاحها الطويل - عرقاً غزيراً ودماً كثيراً، وانتهى بها الامر - بعض الاحيان - الى الاستشهاد، اذا بها لا « تتحرك » في كفاحها هذا الا من خلال عاطفة حب جارف وهيام عنيف آسر بالمحبوب.. رغم أن العناصر « الدرامية » التي تعد احدى المقومات الاساسية للعمل الفني المبدع قد لا تقوم في أحيان كثيرة على علاقات التقابل المأساوي بين الحبيب والمحبوب.. وما أكثر ما تتواجد هذه

العناصر في أنماط أخرى من التجارب التي يزخر بها تاريخنا بدءاً من الصراع الذاتي ضد قوى التفكيك والتدمير للشخصية البشرية، من أجل تحقيق توحدها ونقائها وانسجامها، وانتهاء بالسعي الدائب للتحقق بالقرب من الله.. المحبوب الأكبر والأعظم.. مروراً بالممارسات الجهادية على الجبهات الواسعة ضد الطواغيت التي تسعى الى سحق مطامح الانسان والجماعة المسلمة.. هذا فضلاً عما تتضمنه الكثير من الوقائع التاريخية من عناصر «المفاجأة» و «البطولة» و «المأساة» والاحتدام العاطفي أو الوجداني، والتي يمكن للفنان أن يكتشفها عبر تجواله في ساحات هذا التاريخ فيصنع منها أعمالاً فنية ابداعية مؤثرة..

فاذا ما غادرنا شرط الالتزام الذي يتوجب أن يكون حذراً - كما رأينا - من منزلقي الوعظية والتحريفية، وتفحصنا الشروط الأخرى لجعل الواقعة التاريخية في خدمة الفن، وبالتالي في خدمة القيم التربوية، كان لا بد أن نشير الى ضرورة تجاوز التكرار الممل والوقوف الدائم عند مساحات بالذات من تاريخنا الخصب، الطويل، رغم أن العناصر «الدرامية» في هذه المساحات قد لا تكون أكثر كثافة وتعبيرية عن مساحات ووقائع أخرى لم تمتد اليها - حتى الآن - يد فنان..

ان الأهمية الدينية الصرفة لبعض وقائع تاريخنا ومساحاته تحمل ولا ريب أهميتها العقيدية والتاريخية. ولكنها قد لا تطاوع ضرورات الابداع الفني. وبالتالي فهي اما أن تفقد قدرتها التعبيرية وتأثيريتها وتتحول الى عملية سرد تاريخي فحسب. واما أن يجد الفنان نفسه مضطراً لكسر بعض الحواجز التي تحتمها الاعتبارات الدينية نفسها. فيقع في أخطاء ما كان سيقع في إسارها لو أنه عرف كيف يختار الوقائع والاحداث.

ان على الأدباء والفنانين اليوم أن يبحثوا عن مساحات جديدة في امداء تاريخنا المتدفق. الثر.. وانهم - يقيناً - واجدون هناك من الوقائع والأوليات ما يمكن أن يصنعوا منه أعمالاً فنية عظيمة قد تحقق من القيم الجمالية والتربوية الأكثر والاعمق.

هنالك - أيضا - ضرورة تحقيق قدر كبير من «التواصل» بين التاريخ والواقع. أي بين الماضي والحاضر.. أن يسعى الفنان الى كسر الجدار الزمني. لتعصير الواقعة التاريخية. أو لنقلنا - بالمقابل - الى قلب التاريخ لمعايشة وقائعه والتفاعل مع معطياتها..

ان تحقيق هذا التداخل الزمني يمثل ضرورة فنية

وموضوعية في الوقت نفسه.. ضرورة فنية لأنه يجعلنا نقف في قلب الواقعة التاريخية التي تملك حينذاك، ومن خلال التكنيك الفني المتمكن، قدرتها الكبيرة على التعبير والتأثير.. وضرورة موضوعية لأنه سيخرج الفعل التاريخي من سكونيته وأسره الزمني ومتحفيته وتسطحه. ويعيد اليه الحياة كفعل دائم التدفق والتمخض.. فعل يتحرك باستمرار لكي يصب في بحر وجودنا الراهن فيغنيه ويحفزه ويجعله أكثر اصالة بتلقيه الدم الحار من رحم تاريخه هو، وماضيه هو. فلا يغدو هجيناً..

لقد تعامل كُتّاب الغرب وفنانوه الجادون مع تاريخهم، وبمجرد أن نلقي نظرة متمعنة على نتاجهم التمثيلي والمسرحي في هذا المجال، فإننا سنجدهم يتجاوزون - في كثير من الاحيان - الوقوف السالب أمام الواقعة التاريخية.. الوقوف الذي يسجل حركة التاريخ في جانب ما من جوانبه تسجيلاً فوتوغرافياً. فلا هو يضيف شيئاً جديداً. ولا هو يسعى الى اعادة تركيب الواقعة بما يجعلها أكثر تأثيرية من مجرد عرضها المتحفي الصرف.. لقد تجاوزوا هذا الموقف لأنهم لايريدون أن يقدموا لنا عروضاً «تعليمية» عن تاريخهم. فلتلك العروض رجالها ومجالاتها المدرسية المعروفة. ولكنهم يسعون الى تحقيق قدر من التوافق بين رؤية الفنان البعيدة وأمانة العالم

والتزامه.. بين الذات والموضوع.. بين ما كان وما هو كائن وما يمكن أن يكون.. انهم يتجاوزون عملية رصف الاحداث رصفاً عرضياً، لكي يتوغلوا باتجاه العمق لاستجاشة كل القيم النفسية والتربوية التي يمكن أن يحدثنا عنها الفعل التاريخي وهو يتمخض في صيرورته الدائمة عن مزيد من القيم والمؤثرات والتشكيلات التي تهم الانسان المعاصر وتلامس واقعه وأحلامه وأمانيه.

اننا نقرأ على سبيل المثال: «بكت» لجان آنوى و«الارض كروية» و«ليالي الغضب» لسلاكر و «أنطونيوس وكليوباترا» لشكسبير و «العادلون» و «كاليغولا» لكامي و«هنري الرابع» لبيرندللو و«الذباب» لسارتر و «تاج على ميتة» و «مالاتستا» لمونترلان.. فنجد أنفسنا أمام أنماط «حركية» من التعامل مع الواقعة التاريخية تتمثل فيها الشروط التي يتوجب على الفنان المسلم، الذي يسعى الى اعتماد التاريخ الاسلامي في بناء أعماله، أن يفيد منها ما وسعته الافادة. لا سيما وأن تاريخنا الخصب يتضمن من الوقائع والأحداث ما يمكن أن يمنحنا المزيد من الدلالات المكثفة والقيم الموحية والمؤثرات التي ترفض أن يأسرها زمان أو مكان.

ان العمل الفني الذي يعتمد الأرضية التاريخية

ليس - من جهة أخرى - ترفاً فكرياً أو جمالياً محضاً، لكي يفصل التاريخ عن الواقع ويعرضه كما لو أنه عالم قائم بذاته لا يمنحنا الا «جمالية» نسبية قد لا يكون لها أي تأثير تربوي فعال على تجربتنا الحية المعاشة. ومن ثم فإن تحطيم الفاصل الزمني وتحقيق التواصل بين تجربتنا الماضية وحياتنا الراهنة سيؤول الى إغناء العمل الفني وتجاوز حدوده الجمالية الصرفة الى الفعل والتغيير والبناء.

ان الفنان «المادي» يمارس هذا الاسلوب وهو بصدد خلق مؤثرات فكرية وتربوية من خلال ابداعه الفني.. ومعنى هذا أن يتحول تاريخنا الى «أداة» تتداولها أيد «غريبة» لم تتواصل مع هذا التاريخ ذلك التواصل الطبيعي الذي يرفض التزييف والتحريف.. ان تاريخنا يتحول على أيديهم الى حاضرنا لكي يعانقه.. لكنه، بعد أن يصل مرحلة اللقاء والعناق هاتين، يكون قد أضاع هويته وفقد شخصيته..

وفي مقابل هذه الخطيئة، وكبديل عنها، يجب أن يتحرك الفنان المسلم فيكسر جدار الزمن ويصل بين الماضي والحاضر، بين التاريخ وبين الواقع، لكي يمنحنا، من خلال ابداعه الفني، القيم الكبيرة التي تمكننا من تأصيل شخصيتنا وحماية ذاتنا الحضارية في مواجهة غزو فكري وتربوي لن يلقي

سلاحه قبل أن يمحو هذه الشخصية محواً ويدمر هذه الذات تدميراً.

وثمة - فضلاً عن هذا - مشكلة ايجاد بديل فني مناسب لتغطية الفراغ الذي يحتمه اختفاء بعض الشخصيات الخطيرة ذات المكانة القيادية المتقدمة في تاريخنا كالأنبياء عليهم السلام وكبار الصحابة رضي الله عنهم.. لقد استطاع بعض الفنانين - فعلاً - تجاوز هذه المشكلة دون أن يلحق ذلك أي ضرر يذكر بأعمالهم . ولكن الاتجاه السائد الآن - على مستوى التليفزيون والسينما - هو المزيد من « رفع الحرج » في عرض شخصيات كهذه بشكل مباشر، الامر الذي تترتب عليه نتائج تربوية سيئة بالنسبة للصغار بوجه خاص.. انهم - على سبيل المثال - يرون الرجل الذي قام قبل شهر أو شهرين بدور « خالد بن الوليد » رضي الله عنه، يظهر في تمثيلية أو مسرحية تالية فاسقاً شريراً أو متملقاً ذليلاً.. وهم يرون المرأة التي قامت بدور « الشيماء » أخت الرسول عليه السلام تبرز في عمل آخر بدور امرأة ساقطة.. فيحدث ذلك في تصوراتهم الكثير من الكسور والشروخ، هذا فضلاً عن أن أي ممثل معاصر لن يكون، مهما بلغ من نقائه الخلقي وسمو تجربته، بالمستوى الذي يمكنه من تجسيد دور هذا الصحابي أو ذاك.. ومن ثم فإن على الفنان المسلم أن يجد

بديلاً فنياً، يتميز بالمرونة والدوام، لمنع تكرار هذه الظاهرة والتعويض عن الفراغ الذي يتمخض عنها. ولن يتم هذا الا بتعاون كافة عناصر العمل الفني التمثيلي: المؤلف والسينارست والمخرج ومهندس الديكور والممثل.

ان هذا يقودنا الى قضية اخرى وهي أننا في تخطيطنا للافادة من الشاشة الصغيرة في هذا المجال، يجب أن نذكر أن العمل « التمثيلي » ليس انجازاً بسيطاً، يترتب نجاحه على هذا الطرف أو ذاك، ولكنه جهد « مركب » لن يمضي الى هدفه ويحقق غايته المرجوة، الا من خلال تضامن وتكامل عدد من العناصر الفعالة التي ذكرناها قبل قليل، وانها لا بد أن تملك حداً أدنى – على الاقل – من الرؤية المشتركة والالتزام.

ورغم ذلك يبقى النص هو الأساس، حجر الزاوية التي لا بد منها لقيام العمل الفني الجاد الملتزم. فالمؤلف هو الذي « يضع » هذا العمل، يختار مواده الأولية، ويحدد أبعاده الزمنية والمكانية،ويضعصيغته شبه النهائية، وينفخ فيهمن روحه فيمنحه وجوده وشخصيته.. وان كل ما سيتم بعد ذلك على أيدي الفنانين، وبخاصة المخرج والممثل، سوف لن يعدو عملية تحويل لهذا العمل الادبي من صيغته التعبيرية التي تقوم على الكلمة الى صيغة تعبيرية تقوم على الحركة.

(٣)

تبقى بعد هذا مسألة مهمة كنا قد ناقشناها في مقدمة مسرحية «المأسورون»[١]. ولا بد من مناقشتها هنا أيضا نظراً لارتباطها الوثيق بالموضوع، تلك هي طبيعة العلاقة بين الشكل والمضمون في العمل التمثيلي. والسؤال يطرح نفسه مرة أخرى: هل ثمة ضرورة لاعادة صياغة الشكل المسرحي أو التمثيلي بما يتفق والمضامين الاسلامية؟ وهل ثمة ارتباط عضوي حيوي بين التصور والتجربة الاسلاميتين وبين الشكل المسرحي أو التمثيلي الذي تحتلاه؟؟

ويجيء الجواب - هنا كذلك - بنعم ولا..

نعم، لأن الخلافات الجذرية بين المضمون الاسلامي وسائر المضامين الدينية والوضعية، على درجة من العمق تمد تأثيرها المباشر على الشكل المسرحي الذي سيتخذ مجالاً لطرح هذه المضامين فنياً.. وهذا التأثير المباشر سيظل يزداد امتداداً وعمقاً وتشابكاً بين الشكل والمضمون كلما ظهرت الى الوجود مسرحية أو تمثيلية اسلامية جديدة.. الى أن يأتي يوم نجد فيه أنفسنا وجهاً لوجه أمام وحدة عضوية لا يمكن فصمها بين المضمون والشكل في المسرح الاسلامي. خاصة أن الاسلام

---

(١) منشورات دار الارشاد، بيروت ١٩٧٠.

يفرض على الاخراج المسرحي أو التمثيلي - كما رأينا - تعديلات ذات أهمية بالغة يجب مراعاتها اذا ما أريد للعمل الفني أن يحافظ على طابعه. وتحفظات في انتقاء عناصر التمثيل وأزيائهم، وفي حجب بعض الشخصيات ذات المكانة الخاصة عن الانظار والاكتفاء بنقل أصواتهم أو اعتماد عناصر تمثيلية أخرى (كالمنادين. ألكورس، تكنيك المسرح داخل المسرح)، لتنقل الى المشاهدين ما يدور خلف المشاهد من أحداث[٢]، وفي تصميم الديكور وتحديد طابعه العام، وفي تنظيم المؤثرات الصوتية واختيارها.. كما أن المضمون - من جهة أخرى - يفتح مجالات جديدة وآفاقاً واسعة أمام المخرج، ويدخل الى الخشبة شخوصاً وأدواراً لم تألفها المذاهب الأخرى، ويحتم عليه استخدام مزيد من الامكانات والمؤثرات والوسائل المسرحية، وأن يجري تغييرات أساسية في التكنيك لكي يستطيع الاستجابة لهذه المطالب من جهة، ولكي يغطي على التحفظات من جهة أخرى.

ان ارتباط المضمون بالشكل المسرحي أصبح من الامور

---

(٢) أنظر مسرحية (صرخة عند المسجد الأقصى) في كتاب (معجزة في الضفة الغربية) للمؤلف، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٩.

المألوفة في عالم التمثيل في العصر الحديث، وبخاصة في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية.. لا سيما بعد التجارب التي مارستها المذاهب الجديدة في ميدان الشكل المسرحي. كمحاولات « برشت » في مسرحه الملحمي و« بيتر فايس » في مسرحه التسجيلي و« بكت » و« يونسكو » و« اداموف » و« جينيه » في مسرحهم الطليعي (مسرح العبث واللامعقول).. وكلما ازداد رواد هذه المذاهب وتلاميذهم عطاء، ازداد التشابك بين مضامينهم المسرحية وأشكالهم، الامر الذي يدفع الى القول بأن المسرح الاسلامي سيكون أشد ارتباطاً بين الشكل والمضمون، نظراً للخلاف الجذري الحاد بين منهجه وتصوره، وبين المناهج والتصورات الأخرى، هذا فضلاً عن الخلافات في الشكل نفسه، بينه وبين المذاهب الاخرى، مما ذكرنا بعض جوانبه قبل قليل.

وتحديد ملامح الشكل المسرحي أو التمثيلي الاسلامي ليس من شأن النقاد الدارسين بقدر ما هو من شأن الكتاب المسرحيين أنفسهم. فما دام « الشكل » مسألة دينامية، فإن المعطيات التمثيلية نفسها هي التي ستحدد بمجموعها – في مستقبل قريب أو بعيد – ملامح هذا الشكل. ولو صادف أن وجد النقاد – الان – تراثاً مسرحياً اسلامياً لكان بامكانهم أن يستنبطوا هذه الملامح.. الا أن معظم ما هو

موجود من أعمال مسرحية لا يتعدى - الا في القليل النادر - المسرح التاريخي الكلاسيكي الذي يعتمد اقتطاع فترات وعينات من التاريخ - أبطالاً وأحداثاً - لعرضها على المسرح أو الشاشة الصغيرة. وهذا الاتجاه يستوي فيه المسرح التاريخي الاسلامي وغير الاسلامي وليس له أي تأثير على صياغة الشكل.

ان الذي نعنيه هو المسرح الذي ينبثق عن التصور والتجربة الاسلاميتين اللتين عرضنا بعض ملامحهما في الصفحات الماضية. وهما يمكن أن يبرزا في مسرحية معاصرة، كما يمكن أن يبرزا في مسرحية تاريخية بشرط أن يتجاوز هذا النوع تقاليده الكلاسيكية القديمة - كما رأينا - ويعتمد الاساليب التي تستنطق من التاريخ كل ما يمكن أن يقول، محطمة الجدران التي تخنق الوقائع والدلالات، ومعتمدة على تجاوز حدود المكان والزمان والتناسق الكمي للاحداث.. فإلى أن يتم انشاء المسرح الاسلامي الاصيل - بكل أبعاده وشروطه - لن يتاح لأي ناقد أن يحدد - مسبقاً - ما ستكون عليه ملامح الشكل.. والقضية - مرة أخرى - قضية فنية دينامية. وليست تصميماً مدرسياً، هندسياً، تعطى ملامحه مسبقاً.

أما الجواب « لا ».. أي أنه ليس من الضروري اعادة صياغة الشكل المسرحي أو التمثيلي بما يتفق والمضامين الاسلامية، فيقوم على أن الشكل المسرحي في أساسه ظل محتفظاً بعناصره الرئيسية، رغم تبدل المذاهب والاتجاهات التي توزعته ابتداء من عصوره الأولى وحتى السنين الاخيرة.. ولقد ظلت هذه العناصر الرئيسية تمثل قاسماً مشتركاً أعظم، ليس بمستطاع أي مذهب مسرحي الاستغناء عنها، مهما بلغ من التطرف و « الاغراب » في تحطيم القواعد التقليدية.. هل لمذهب مسرحي أن يستغني عن الممثل بشكل دائم؟ هل بإمكانه تجميد الحركة أو التعبير؟ وهل بإمكانه تجريد العمل المسرحي من الاضواء والظلال والمؤثرات الصوتية؟ ثم - وهذا هو المهم - هل بإمكانه ازالة الحواجز الثلاثة المحيطة بالمساحة المحدودة المسماة « خشبة المسرح »؟!

هذه الوسائل وغيرها ظلت باقية على مر الزمن، رغم التقلبات التي شهدتها الحركة المسرحية منذ عصر التراجيديا اليونانية وحتى المسرح التسجيلي ومسارح العبث واللامعقول... ومن ثم، فإن على المسرح الاسلامي أن يلتزم هو الآخر هذا القاسم المشترك للشكل المسرحي، ومن خلاله يمكن للمخرج أن يعيد صياغة العوامل المسرحية: من طريقة اخراج وتمثيل وتصميم للديكور، واختيار للمؤثرات الصوتية،

وتوزيع للأضواء والظلال، بما ينسجم والمضامين الجديدة التي يطرحها المسرح الاسلامي.

(٤)

ثم ان أية محاولة جادة لايجاد فن تمثيلي - تليفزيوني اسلامي، يعتمد « التاريخ الاسلامي » أرضية لإبداعه، لا بد ان تضع في حسابها الخطوات أو الاعتبارات التالية:

(١) تهيئة « النصوص » الملائمة التي تنبثق عن رؤية اسلامية شاملة وفهم جيد لحركة التاريخ الاسلامي وملامحه الاساسية، توازيها قدرة فنية ابداعية تمارس التعامل مع الواقعة التاريخية وفق الشروط التي عرضنا لها قبل قليل.

(٢) تهيئة الكوادر الفنية الملتزمة: السينارست، المخرج، مهندس الديكور، الممثل، وحتى المنتج، لكي يجد النص الفني « الأيدي » التي تستطيع أن تحوله، دون مسخ أو تحريف أو تشويه، الى عمل تمثيلي مبدع. وهذا يتطلب، بطبيعة الحال، ايجاد مؤسسات أكاديمية اسلامية للفنون، تأخذ على عاتقها مهمة اعداد هذه الكوادر وتعميق خبراتها وتخصصاتها، وهو أمر يصعب تحقيقه في ظروفنا الراهنة، ويبقى نمو هذه الكوادر يعتمد بالدرجة الأولى على التزام بعض الدارسين الذين تخرجوا - أو لا يزالون - من هذه الاكاديمية أو

تلك، مستفيدين من مفردات مناهجهم وتخصصاتهم، طارحين عليها رؤياهم، معيدين تركيب خبراتهم المدرسية الصرفة بما ينسجم وموقفهم الشمولي - كفنانين ملتزمين - من الكون والحياة والتاريخ والانسان. واذ كان الكثير من الاكاديميات الفنية يعمل في اطار مدرسي صرف لا يميل يمينا ولا شمالا، فإنها تغدو بالتالي مجرد خبرة حيادية قد يفيد منها الفنان لتعزيز امكاناته وتعميقها. أيا كان انتماء الفنان مادياً أم قومياً أم إسلامياً.

ولكن لما كان النص هو حجر الزاوية كما بينا، فان بمقدوره أن يمرر - بقدر كاف «من الامانة» التي تحفظ ملامحه وشخصيته - عبر سلسلة الفنانين «التكميليين»، وخاصة اذا كان النص على درجة من القوة الفنية تؤهله لأن يفرض شخصيته تلك، بأبعادها المختلفة، على هؤلاء الفنانين التنفيذيين الذين سيعملون جهدهم على تحويل رؤية المؤلف وموقفه الى عمل مرئي.. والحق أن المخرج - الذي يقف على قدم المساواة مع المؤلف في كثير من الاحيان - لا يعدو عمله - على ما فيه من الخطورة - أن يكون عملية تحويل ابداعي للنص المكتوب الى حركة تعبيرية مرئية.. فكل ما قد يصدر عنه من معطيات ليست سوى محاولة «تكييفية» لتحقيق هذا الهدف الذي لن يخرج بالنص عن

اطار التزامه ورؤياه.

ونستطيع القول - من ثم - بأننا بمجرد تهيئة الاديب المسلم الذي يعرف كيف يتعامل فنياً مع الواقعة التاريخية، وينتقيها، ويعصرها.. نكون قد قطعنا ثلثي الطريق. بل يحدث أحيانا أن يفيد النص الاسلامي من خبرات سائر الفنانين وبخاصة المخرج والممثل، الذين لم يمارسوا الالتزام الا بمفهومه المهني أو الاكاديمي، فيزداد النص من خلال هذه المهارات العريقة قوة وابداعا. وأننا بمجرد أن نتذكر - على سبيل المثال - بعض الحلقات المتازة من سلسلة «عروس اليمامة» فسنعرف كيف يقدر النص الممتاز على اعتماد طاقات اخراجية وتمثيلية فذة لا تعرف عن الالتزام بمفهومه الفكري شيئاً، ولكنها من خلال اخلاصها لعملها، ومن خلال مهاراتها وخبراتها التي نماها العمل الدائم الطويل، تقدر على تحقيق رؤية النص وابداعيته بشكل قد يفوق - أحيانا - قدرات مجموعة من الفنانين الملتزمين، ولكن حديثي عهد بالعمل في حقول الفن.

(٣) القيام بعملية مسح شاملة لكافة النصوص التي اعتمدت الواقعة التاريخية الاسلامية في بنائها، وبغض النظر عن مواقف مؤلفيها وطبيعة التزاماتهم الفكرية، من أجل فرز

هذه النصوص وتبوبيها على ضوء الرؤية الاسلامية.

ان جهداً كهذا سيمنحنا ثمرتين اثنتين، أولاهما تتمثل بالافادة من خبرات الآخرين وتفحص مواطن القوة والضعف، وملامح الخطأ والصواب، وثانيتهما تقوم على تنمية قدراتنا الابداعية والنقدية على السواء. من خلال التعامل مع هذا الحشد الكثيف من النصوص. ولعلنا نجد من بين هذه النصوص، فضلاً عن هذا وذاك، ما هو أقرب الى الرؤية الايمانية عموماً والاسلامية على وجه الخصوص، ما دام أن المؤلف قد تعامل مع تاريخنا وعقيدتنا أساساً، ذلك التعامل الفذ الذي يعتمد خبراته الغنية ويجنب نتاجه الوعظية والتلقينية والمباشرة التي قد نجدها لدى الكتاب الاسلاميين الناشئين.

(٤) في مقابل هذا يتوجب القيام بعملية مسح شاملة أخرى لكافة المعطيات التليفزيونية في هذا المجال: تمثيليات ومسلسلات ومسرحيات، من أجل تبويبها وفرزها هي الأخرى، على ضوء الرؤية الاسلامية نفسها، في محاولة للافادة من التجارب المختلفة من جهة. ولتنمية قدراتنا الفنية من جهة أخرى، وللحصول على نماذج وأنماط «تطبيقية» قد تكون أكثر صلاحية وجدوى من بذل الجهود لتقديم نماذج

جديدة من خلال خبرات جديدة، على أهمية هذه المسألة وضروريتها.

ونحن نستطيع أن نشير هنا - على سبيل المثال لا الحصر - الى بعض هذه النماذج التي تختلف في مواقفها، قرباً وبعداً، من زاوية الرؤية الاسلامية: عذراء مكة، عروس اليمامة، عرس في السماء، رجال فوق الصخور، نور الى الابد، ابراهيم الخليل، عبد المطلب، مصعب بن عمير، خالد بن الوليد، الخندق.. راحل الى النجوم.. وغيرها كثير ..

(٥) وفضلاً عن هذا وذاك، يتوجب القيام بعملية مسح شاملة لتاريخنا الاسلامي نفسه في مساحاته جميعاً: أبيضها وأسودها، مضيئها ومظلمها.. حيث مواقع النصر ومنعطفات الهزيمة.. من أجل تبين الوقائع التاريخية التي يمكن أن تكون الارضية المناسبة للعمل الفني.. ولا ريب أن عمليتي المسح السابقتين ستفيداننا في تجاوز التكرار حيثما كانت هناك وقائع قد عولجت فنياً بما فيه الكفاية.. وفي اعادة الكرة حيثما جرت محاولات تحريفية خطيرة على حساب الواقعة التاريخية، وحيثما قدمت أعمال وعظية مباشرة جاءت على حساب «تأثيرية» الواقعة وشحناتها التعبيرية. كما ستفيداننا في منحنا المؤشرات الدقيقة لبناء أعمال فنية على وقائع تتميز بالجدة والبكارة، لم

يسبق وأن تعامل معها مؤلف أو فنان.

وثمة اقتراح يمكن طرحه في هذا المجال: أن يقوم عدد من المؤرخين والفنانين الاسلاميين باعداد «ورقة عمل» قابلة للمناقشة والتعديل تتضمن جدولاً مفصلاً بالوقائع والشخوص والاحداث التاريخية التي يمكن اعتمادها في بناء أعمال فنية تليفزيونية هادفة ومؤثرة في الوقت نفسه، مع الاشارة الى ما قدم وسيقدم من أعمال فنية عن هذه الواقعة أو الشخصية أو تلك، لغرض تحاشي الازدواجية والتكرار... ومع تثبيت المؤشرات التي تنسق المساحات والوقائع التاريخية حسب أهميتها وبكارتها وقيمها التعبيرية، وتشعل الضوء في طريق المخرجين والممثلين وسائر الكوادر الفنية لكي يكونوا أكثر استشرافاً للموضوع وقدرة على الاختيار والابداع.

(٦) ومن المجدي - كذلك - القيام بمحاولة «تجريبية» - اذا صح التعبير - في دعوة كافة الادباء والفنانين الاسلاميين، وأولئك الذين يملكون الاستعداد لطرح ابداعهم من خلال الرؤية الاسلامية، أن يتقدموا بما يقدرون عليه من أعمال أدبية وفنية ملتزمة من أجل إغناء النص الفني الاسلامي وتنويعه، وتوسيع آفاقه، ومن ثم فتح الطريق أمام الكوادر الاخراجية والتمثيلية التي ستجد نفسها أمام حشد

غني من هذه النصوص يمكنها من الاختيار والابداع. وهذا يوجب - في الوقت المناسب - توجيه الدعوة الى عدد من المخرجين والممثلين، أفراداً أو فرقاً، وإغراءهم، بشكل أو آخر، في الاقدام على تنفيذ واحد أو أكثر من هذه النصوص المطروحة للعمل. فجماهير أمتنا، مهما انحرفت بها، وبرؤياها وأذواقها، رياح التشريق والتغريب، فستظل دائماً تحمل في أعماقها، وفيما وراء التراب الذي أسقطته تلك الرياح. بذرة الانسجام والتناغم والتجاوب العميق مع كل ما هو اسلامي أصيل، لأنه سيأتي ولا ريب انعكاساً لمطامحها وآمالها، وتأكيداً لثقتها بنفسها، وتأصيلاً لشخصيتها ووجودها.

إن جماهير أمتنا هي ابنة أربعة عشر قرناً من حركة التاريخ الاسلامي وتمخضه الدائم.. وهي تحن دائماً الى أن ترجع الى أمها بعد رحلة تغرب طويل آذتها وأشقتها.. تعود لكي تجد نفسها.. وتعانق توحدها، وتلتقي بمصيرها هناك.. وليس أقدر من الابداع الفني على تحقيق هذه العودة الايجابية وهذا البعث الحركي لمعطياتها التاريخية.. ليس أقدر من الفن على نفخ الروح في قلب السكون وتفجير الحياة في أوردة التاريخ وشرايينه.

وهكذا فإنه حتى على المستوى النفعي «البراغماتي» الصرف، يجد الفنان شهرته ونجاحه في مدى قدرته على تحقيق

هذا التناغم بين جماهير المسلمين وبين رؤاهم ومطامحهم وحنينهم من خلال ابداعه الخاص.. ناهيك عن « الالتزام » الفكري الذي يوجب على الفنان أن يتحرك في اطار عطاء هادف أصيل.

رأيٌ حول « الروحيّة »!!

يقرأ الانسان الكثير من المؤلفات والبحوث عن حركة الروحية الحديثة، ولكثرة ما تقدمه من أدلة تجريبية وشواهد علمية وأحداث واقعية من خلال مختبراتها ووسائطها وأساليبها الخاصة في التواصل الروحي وتحضير الأرواح.. لكثرة ما تقدمه من هذا وذاك، يكاد الانسان يقتنع بصحة معطياتها وصواب نتائجها. ويستطيع القارىء أن يرجع إلى أيّ منها على سبيل المثال: (الروح والخلود بين العلم والفلسفة) لعبد العزيز جادو، (الانسان روح لا جسد) للدكتور رؤوف عبيد، (ما وراء الموت) لكارليل ب، (عن تاريخ الروحية) للسير أرثر كونان دويل، (ظواهر حجرة تحضير الأرواح) لإدوين باورز، (أرواح وأشباح) لأحمد فهمي أبو الخير، (أضواء على الروحية) للدكتور علي عبد الجليل راضي. و(على حافة العالم الأثيري) لجيمس أرثر فندلاي.... لكي يتبين بنفسه حقيقة هذا الذي نقوله.

ليس هذا فحسب، بل إن الذين مارسوا هذه العمليات، كثيراً ما يحدثون أصدقاءهم عن مشاهداتهم ويقدمون العديد من الشواهد المادية على صدق تجربتهم.. ولقد شهدت بنفسي زخارف معقدة رسمها أناس لا يعرفون شيئاً عن هذا الفن، وقالوا إنهم كانوا مجرد وسطاء لأرواح فنانين قدماء أملت عليهم هذه الرسوم.. وسمعت أحاديث عميقة في الفلسفة والميتافيزيقا من أناس لم يتجاوزوا في دراساتهم المرحلة الابتدائية!!

ولكننا نقرأ في مقابل هذا كتاباً قيماً كالذي أصدره الدكتور محمد محمد حسين بعنوان (الروحية الحديثة دعوة هدامة)[1].. فيكاد يقنعنا، بما يقدمه من أدلة، وبالمنهج السليم الذي يتبعه، بصدق العلاقة الأكيدة بين منظمات وبيوتات تحضير الارواح وبين قوى الهدم الماسونية والصهيونية في عالمنا المعاصر.. عن طريق اعتماد معطيات الروحية الحديثة لتدمير الحواجز بين الأديان وللتشكيك بالكثير من القيم الخلقية، وللترويج لمبادىء وشعائر الدين اليهودي بالذات.. باختصار إنها تحقق - وفق طرائقها الخاصة ذات التأثير البالغ - ما

---

(١) دار الإرشاد. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٦٩.

تسعى الماسونية لتحقيقه خدمة للحركة الصهيونية في العالم كله.

يقول د. حسين في مقدمة كتابه المذكور: « .. أريد أن ألفت نظر المسلمين والنصارى على السواء الى خطر هذه الدعوة عليهما جميعاً.. إن الذين يدّعون استحضار أرواح الموتى يستحضرون روح المسلم وروح النصراني وروح اليهودي وروح البوذي وغير أولئك وهؤلاء من أهل الجاهلية على تباين نحلهم من مختلف بقاع الأرض، ويزعمون أنهم يعيشون جميعاً في سعادة وهناء. ومعنى ذلك أن السعادة والهناء لا تتوقف على الدين الذي يختاره الناس لأنفسهم في حياتهم الأرضية. وذلك يؤدي الى الاستخفاف بالأديان كلها والى تكوين مفاهيم دينية جديدة. فما الذي يهدف اليه الداعون بهذه الدعوة من وراء دعوتهم!

« هذا هو السؤال الذي يجيب عليه الكتاب. وسيعلم القارىء من بعد أن الجواب عليه لا يتجاوز كلمات. إن الذي يقف وراء هذه الدعوة هو الصهيونية العالمية الهدامة بكل أجهزتها، وفي مقدمتها الماسونية التي تعمل على محو العصبيات الدينية والقومية، لكي تتمكن من استخدام بلهاء المسلمين والنصارى وغيرهم من أهل النحل على اختلافها في خدمة أهدافها تحت ستار الانسانية التي تجمعهم جميعاً.ولكي تمحو

من وجه الأرض كل عصبية فلا تبقى الا عصبية اليهود لدينهم وقوميتهم وعند ذلك يصبح العالم بأسره أمام اليهود قطيعاً من الأغنام لا تجمعه جامعة ولا تربطه رابطة، يسوقونه الى حيث يريدون..

«لذلك أردت أن أنبه الذين قد يخدعون بظاهرة الدعوة الى محاربة المادية والى الانسانية والى الحقيقة الواحدة التي تكمن وراء الأديان كلها، مما يلوح في سطور الداعين بهذه الدعوة، وما يكمن خلف سطورهم، وهو لا يستهدف في حقيقة الأمر إلا انحلال الأمم والشعوب على اختلافها، خدمة للصهيونية العالمية وحدها...»

أين الخطأ وأين الصواب؟ أين الحق وأين الباطل؟ ما هو الأسود وما هو الأبيض في وجهتيْ النظر المتضادتين هاتين؟!

أغلب الظن أن المؤمن المعاصر عموماً، والمسلم على وجه الخصوص، قادر على أن يفيد من هذه الحركات التي تقدم الكثير من معطياتها - كما مر بنا - على أساس تجريبي، ويسهم في نشاطاتها علماء كبار في الطبيعة والطب والفلك والرياضيات وغيرها، فضلاً عن كبار المفكرين في شتّى المعارف الانسانية.. وذلك بعد أن يطرح المسلم كافة السلبيات ويرفض سائر التهاويل ويسقط كل النتائج المصوغة لخدمة الأهداف الهدامة لهذه الحركة المذهبية أو تلك.. وهو ولا ريب قادر، بما

يمتلكه من رؤية شاملة، وإيمان عميق، وفهم ذكي، على القيام بعملية الفرز هذه، وتمرير معطيات الروحية الحديثة بمنخاله الناعم الدقيق لكي لا يخرج الى حيز القناعة والقبول إلا ما يلائم العلم الخالص والحق الذي ما بعده إلا الباطل والضلال.

ولنستمع إلى شهادات بعض هؤلاء العلماء والمفكرين نقلاً عن كتاب (الروح والخلود) لعبد العزيز جادو:

روبرت هير (أستاذ الكيمياء بجامعة بنسلفانيا): « بعد أن حصلنا أخيراً على قوى وساطية الى مدى كافٍ لتبادل الآراء مع أصدقائنا الأرواح، لم تعد بي حاجة لأن أدفع عن الوساطة (الروحية) تهمة التدليس والخداع، وإنما هي الآن أخلاقي الخاصة التي ينبغي أن تكون محل التساؤل.. إن جميع البينات التي حصلت عليها والتي أسست عليها النتائج التي أشرت إليها حصل على مثلها وفي جوهرها عدد كبير من الباحثين. ومنهم كثيرون لم يفكروا مطلقاً في أمر الاتصال بالأرواح ولم يدُرْ بخلدهم أن يصبحوا روحيين، وهم على استعداد لأن يؤكدوا حدوث هذه الظواهر والتحركات وعلى غير استعداد لأن يتنازلوا عن الجزم بها حتى وإن كانت غامضة عليهم.»

إديسون (المخترع المشهور): « إني أبحث عن الحقيقة، وقد تقدمت في مضمارها تقدماً كبيراً، خصوصاً فيما يتعلق بالعالم

الآخر والحياة بعد الموت. وإني أقر بأنه لا بد وأن تبقى الروح وتحيا بعد انفصالها عن الجسد. وتتجه جميع أفكاري نحو حل هذه المشكلة وهي مشكلة استمرار الحياة بعد الموت، والمناطق التي تعلو إليها النفس، وأي شكل تتخذه فيها، وطبيعة صلاتها المحتملة بهذا العالم الأرضي.»

وليم جيمس (الفيلسوف المعروف): «إننا لو قارنا رأينا الحالي مع نظرة الماضي نحو الفكر البشري حينذاك، سواء علمياً أو دينياً، لروّعتنا الدهشة بأن الكون الذي يظهر بهذه العظمة والغموض لنا يكون قد بدا لغيرنا شيئاً صغيراً بسيطاً.. والآن، إذا نظرنا الى العالم من زواياه المختلفة، وهي عالم (ديكارت) أو (نيوتن) أو عالم المادة في القرن الماضي، أو عالم (بريد جو وتر) في عصرنا الحاضر لرأيناه هو هو بعينه دائماً (العالم الصغير غير المنظور)، وإذا رجعنا الى (ليل) و(فرادي) و (ميل) و (داروين) وفحصنا نظرياتهم المختلفة، لوجدنا أنهم يضفون على آرائهم نظرة الطفولة والبراءة... إن إنكار العلم التقليدي للشخصية كمظهر للحوادث، وإن الاعتقاد الصارم بأن العالم قطعاً عالم غير شخصي في أخص خصائصه، ليبرهنان على أنها النقص الذي سيتعجب منه خلفاؤنا بالنسبة للعلم الذي نفخر به نحن، ذلك النقص الذي

سيجعل علمنا في نظرهم قصير النظر وعديم العمق»[١].

ريتشارد هودجسون (العالم الانكليزي): « .. لقد بدأت أبحاثي أنا والاستاذ (هايسلوب) منذ اثنتي عشرة سنة، وكنا ماديين دهريين لا نصدق في شيء من ذلك مطلقاً. ولم يكن لنا إلا غرض واحد وهو كشف الغش والتدليس ليس إلا. أما اليوم - وما أدراك ما اليوم - فإني أعتقد وأجزم بإمكان المحادثة وأرواح الموتى. وقد قام عندي الدليل على صحة هذا الأمر بحيث لا أتصور مطلقاً أن يتطرق اليه الشك».

سير وليام كروكس (أحد أبرز العلماء الطبيعيين في القرن الماضي، وأحد رؤساء المجمع العلمي البريطاني، وصاحب الكشوف المعروفة في الكيمياء والطبيعة: عنصر الثاليوم، الزجاج الحامي.. وواضع نظرية المادة المشعة): « بما أني متحقق من صحة هذه الحوادث (الروحية) فمن الجبن الأدبي أن أرفض شهادتي لها بحجة أن كتاباتي قد سخر منها الناقدون

---

(١) يذكرنا هذا بوجهة نظر الفيلسوف الرياضي الإنكليزي (الفرد نورث وايتهيد) الذي دعا إلى إشراك الإنسان في الدراسات العلمية: الطبيعية والرياضية والفلكية، من أجل فهم أعمق للكون. انظر (بحث في الأسلوب المقارن) من كتاب (في النقد الاسلامي المعاصر) للمؤلف.

وغيرهم، ممن لا يعلمون عن هذا الأمر شيئاً...» .. «لست أقول إن الاتصال بالأرواح ممكن الحدوث، بل أقول إنه أمر حاصل بالفعل».

سير وليم باريت (عالم الطبيعة. وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة دبلن، وعضو المجمع العلمي البريطاني): «لقد ثبت أولاً وجود عالم روحي. وثانياً الحياة بعد الموت. وثالثاً إمكان الاتصال بهؤلاء الذين انتقلوا الى هناك..». « .. إنه لمن الصعب جداً أن نبدي للمتشككين غير المدربين أية فكرة كافية عن القوة العظيمة للواقع المجهول».

سير أوليفر لودج (مدير جامعة برمنجهام، وعضو الجمعية الملكية، وهو من أقوى علماء الفيزياء في القرن العشرين): «ليس من العقل أن يقال إن النفس تضمحل إذا تلف الجسد، بل سنظل موجودين بعد موتنا وانتهاء أعمارنا القصيرة على هذه الأرض. أقول ذلك مستنداً الى أدلة علمية، أقوله لأني تحققت أن بعض أصدقائي الذين ماتوا لا يزالون موجودين، إذ أني قد ناجيتهم». «إنني لم أصل الى معتقدي في صحة هذا الأمر عن طريق التأثير الديني وإنما بنيت اعتقادي فيه على نتائج التجارب العلمية التي قمت بها في مجال العلم الواسع المدارك. هذا العلم الذي ينبغي عليه - كما اعتقد - أن يلتفت الى هذه الظواهر فلا يقصر أمره على

ظواهر المادة كما حمله على ذلك علماء القرن التاسع عشر، بل ورجال العلم منذ نيوتن».

بول جيبيه (تلميذ باستور ومدير معهد باستور بنيويورك): «إن التجسد يحدث بواسطة الأرواح العاملة عن طريق القوة التي تستعيرها من الوسطاء، وقد ثبت لدى العلماء الذين شاهدوا هذه العلامات الخارجية الحادثة في حضور الوسيط بأنها تتضمن البرهان المفحم، الذي لم نحصل قط على مثله، بأن لنا روحاً مدركة ومميزة وخالدة بعد الموت، أما هذه الحالة التي نحيا فيها الآن فليست سوى حالة عابرة».

كامي فلاماريون (الفيلسوف وعالم الفلك ومؤسس الجمعية الفلكية الفرنسية): «إن هناك ملكات غير معروفة في الانسان تنتمي الى الروح، وثمة شيء أشبه ما يكون بنموذج آخر منه.. وان التيارات الروحية تخترق الأجواء، واننا نحيا في وسط عالم غير منظور، وان ملكات الروح تبقى بعد تحلّل الأعضاء الجسدية.. وإن التلباثي (أي التخاطر عن بعد) يوجد بين الأموات والأحياء بقدر ما يوجد بين الأحياء».

شارل ريشيه (أستاذ الفسيولوجيا بكلية الطب بجامعة باريس منذ سنة ١٨٨٧ والحائز على جائزة نوبل في الفسيولوجيا سنة ١٩١٣): «إن الروح يمكن الوصول إليها

بقوى تكشف لنا عن حقائق لا يمكن أن يظهرها النظر أو السمع أو اللمس». «إن التفسير الروحي هو النظرية الوحيدة التي بمقدورها أن تفسّر جميع نتائج هذه البحوث». «إن عبادة الآراء السارية كانت امراً سائداً في ذلك الزمن، فلم تبذل جهود في تحقيق آراء (كروكس) أو في رفضها، واكتفى الناس بالسخرية منها، وإني لأعترف في خجل بأني كنت مع العميان عامداً متعمداً. فبدلاً من الإشادة بشجاعة رجل علمي ممتاز اجترأ إذ ذاك (في سنة ١٨٧٢) أن يجهر بأنه توجد - حقيقة - أشباح وأرواح يمكن تصويرها بالكاميرا، ويمكن سماع قلوبها وهي تنبض، بدلاً من هذا سخرت منه.. إن لدينا بينات علمية على أنه ينبغي أن يكون لهذه التجسدات الاكتوبلازمية مكانها ومقامها بوصفها حقيقة علمية. ولا ريب أننا قد لا ندرك كنهها، لكن من السخف المريع أن نعتبر الحق سخفاً..».

وغير هؤلاء العلماء الشهود عشرات وعشرات..



لو لم يحظَ المسلم المعاصر من معطيات الروحية الحديثة سوى على مزيدٍ من التأكيدات التجريبية والحسية والمختبرية على وجود عالم غيبي وراء عالمنا المنظور، وعلى تواجد

شخوص غير مرئية فيما يحيط بنا من مساحات وأمداء، لكفى ذلك دليلاً مقنعاً حاسماً على ما جاءت به الاديان السماوية. وما حدثنا عنه القرآن الكريم في سور ومقاطع وآيات عديدة تضمنت الكثير من المعطيات عن عوالم الملائكة والجان والشياطين..

أي دليل أشد إقناعاً، لأناس لا يؤمنون إلاّ بالحسّ، ولا يثقون إلاّ بطرائق العلماء وشهاداتهم، من هذا الدليل الملموس على وجود عوالم غير مرئية بين ظهرانينا قديرة على أن تفعل الكثير، وتجتاز حواجز الزمان والمكان، وتتواصل معنا. بمجرد أن تتهيأ لها الظروف المناسبة والاجهزة الحسية القديرة على نقل لغتها الخاصة إلينا؟!

إن معطيات الروحية الحديثة، بعد إسقاط دخلها وسخافاتها وتهاويلها وخرافاتها، وبعد الحذر الذكي الواعي من بعض أهدافها الخبيثة المرسومة، يمكن أن تكون سلاحاً جديداً يضاف الى رصيد الإيمان بالغيب، ويمكّن اتباعه من أن يواصلوا طريقهم في هدم الإلحاد، بعزيمة أشد، وقدرات أبعد مدى من ذي قبل.

صحيح، كما تحدث عدد من شيوخ الإسلام ومفكريه في القرن الأخير، من أنه ليس بمقدور محضري الأرواح،

والوسطاء، وأكثرهم ممن لم يلتزموا يوماً حدود ما أمر به الله ورسوله، ولم يتورعوا عن الدنايا والخطايا، ليس بمقدورهم أن يتحكموا بأرواح أناس طاهرين وشيوخ كبار وعلماء جادين، كانوا قد ماتوا منذ زمان بعيد، ويحضرونها الى محاكمهم السرّية لكي يستجوبونها هناك.. وصحيح أنه ليس من منطق الأشياء وطبيعة العدل الكوني أن يتحكم الأسود بالأبيض والصغير بالكبير والفاني بالخالد والخاطىء بالمصيب..

إلا أن هذه التجارب والمعطيات، إذا أثبتت لنا بطرائقها الخاصة، وقد حققت ذلك فعلاً، وجود عالم الجن الذين يتلبّسون ألف لبوس، ويلعبون على الوسطاء والمحضرين، بادعائهم أنهم روح فلان أو علان، وبقدرتهم على الإحاطة بكل شيء.. إذا أثبتت لنا ذلك.. فكفى بها يقيناً يتنزل على قلوب المتشككين الباحثين عن قدرٍ كاف من التأكيدات المنظورة على ما جاء به القرآن الكريم والأديان عموماً عن وجود عالم الجن وراء عالمنا، أو في عالمنا نفسه، إذا توخينا الدقة.. ولكفى بها لطمة جديدة تضرب وجوه المنكرين من خلال منطقهم نفسه.. وإن كان الكثير من هؤلاء لا تفيقهم من نومتهم العميقة مئات اللطمات!!

إن متاعب تحضير الأرواح، وخرافاتها، وانحرافاتها، وسخافاتها، ومخاطرها النفسية والعصبية كذلك، كثيرة جداً..

ولم نسمع أو نقرأ عن مسلم جاد يوماً. لا في عهد الصحابة. ولا في عهد التابعين وتابعي التابعين ومن تبعهم بإحسان. أنهم مارسوا العمل في هذا الميدان..

ولكن ما دام المتشككون أنفسهم. وهم يبحثون عن اليقين من خلال قناعاتهم الخاصة. يقدمون الدليل. على هذا المستوى.. فما لنا الآّ نفيد منه في مقارعتنا للمادية والإلحاد ؟! شرط أن نسقط عنه - كما أكدنا - الدخل والترهات وخبيث الأهداف؟! وما لنا الآّ نأخذ بالقاعدة التي علمنا إياها عمر بن الخطاب رضي الله عنه (إثمهم عليهم ونفعهم لنا)؟!

خطوط عريضة في العبادة الإسلامية...

ثمة ظاهرة أساسية يتميز بها النشاط التعبّدي في الإسلام ذلك أنه لا يقتصر على فترات متقطعة من الزمن. أو أماكن محدودة من العالم. وإنما ينساح لكي يشمل كل الأماكن والأزمان... ليس هذا فحسب. بل إنه في جوهره تذكر للوجود الإلهي في الكون. وإدراك لأبعاده الشاملة. قدرة وإرادة وإحاطة ورقابة وعلماً.. واتصال دائم بالله سبحانه في كل ما يصدر عن الإنسان من أفعال ظاهرة مرئية. أو إرادات لم تتشكل في أفعالها بعد. أو نيات وخواطر وتأملات وهواجس تدور في أعماق النفس.. وتقدير لعظمة الله سبحانه الذي خلق الكون والحياة والإنسان على أروع وأدق نظام.. واعتراف بالجميل للخلاق المبدع الذي هيأ للبشرية ظروفاً تمكنها في كل وقت من تحقيق السعادة الكاملة في الأرض والسماء... إن التعبد بهذا المعنى يمتد إلى كل مساحات الحياة البشرية الظاهرة والخفية. الخاصة والعامة. الفردية والجماعية.

المادية والروحية، تماماً كما تمتد الدماء وتسري في أوصال الجسد البشري وخلاياه.

وتنبثق عن هذه الحقيقة ضرورة التفريق بين هذه القاعدة التعبدية الشاملة، وبين بعض صور العبادة التي حددها الإسلام على شكل شعائر وطقوس ذات أشكال ومضامين معينة كالصلاة والصيام والحج والزكاة.. ففي الحالة الأولى يبدو أن كل ممارسة، باطنية كانت أم ظاهرية، يمكن أن تكون تعبداً إذا كمنت وراءها نية مؤمنة تسعى إلى أن تجعل من كل فاعلية في الحياة وسيلة يتقرب بها الإنسان من الله، ويتعبد إليه، ويتذكر وجوده الشامل القادر المريد.. هذه القاعدة الشاملة التي تضم، فيما تضم، الشعائر الإسلامية الخمس نفسها مضافاً إليها كل الفاعليات الأخرى، ابتداء من أشدها مادية وكثافة (كالتجربة الجنسية وتجارب الطعام والشراب)، وانتهاء بسهر الليالي الطوال تقرباً إلى الله وتأملاً في ملكوته.

والحق أن من الصعوبة بمكان الفصل بين الشعائر الإسلامية وبين القاعدة التعبدية نظراً للارتباط الدقيق بينهما. فضلاً عن أن هذه الشعائر نفسها لا تنصب على الجانب الروحي التأملي فحسب، بل تنساح إلى كل جوانب النشاط الإنساني الحركي: جسداً وعاطفة وروحاً وعقلاً وفسلجة

ووجداناً. إلا أنه لا بد من هذا التفريق لغرض ايضاح هذه الحقيقة الأساسية في بنية الإسلام الذي يرسم لأتباعه برنامجاً عملياً للصعود والترقي ينتهي بأبعد آفاقه في تلك اللحظات التي يتوحد الانسان فيها مع ذاته ويغدو تعبيراً حياً عنها، بحيث أنه لا يمارس عملاً إلا وهو يستشعر، خلال تلك الممارسة، الوجود الإلهي المحيط المريد، وحينذاك يكون المسلم قد حقق أقصى درجات إسلاميته وهي (الإحسان)، ويكون (الإسلام) قد أدى دوره الكامل!!

ولا ريب أن سؤالاً يتبادر الى الأذهان في هذا المجال، وهو أنه إذا كانت الأرضية التي تقوم عليها العبادة الإسلامية تمتد وتشمل هذه المساحة الواسعة من حياة الإنسان فلماذا أضاف الإسلام إليها شعائر يومية وموسمية محددة تتمثل بصيام أو حج أو زكاة.. وأوجب على المسلمين الالتزام بها واعتبر التخلّي عنها حدّاً بين الكفر والايمان؟

والجواب يجيء سريعاً في أن الإسلام جاء لكي (يضبط) و (يحدد) و (ينظم) إنطلاقاً من إيجابيته وواقعيته في تحديد الأشياء والعلاقات والقيم. ذلك أن ترك الإنسان (حرّاً) في ممارسة تعبده لا يضمن أساساً قيام هذا التعبد لدى بعض المنتمين واستمراره لدى بعضهم الآخر. فلا بد إذن من وضع

حد أدنى (ملزم) يكون بمثابة قاعدة يمكن أن يبنى فوقها المزيد المزيد من النشاطات التعبدية التي تصل بالمسلم (اختياراً)، وحسب المقدرة، إلى درجة الإحسان وتحويل الحياة كلها إلى ساحة للتعبد والتذكر!!

ونحن هنا لسنا بصدد الحديث عن أسباب تنظيم هذه الشعائر ومقتضياتها، نظراً لأن هذا الموضوع قد أشبع بحثاً، وهو ليس المطلوب هنا.. إنما نريد أن نلقي ضوءاً خاطفاً على بعض سمات العبادة الإسلامية وأبعادها، سواء في قاعدتها الشاملة أو صورتها الشعائرية المحددة:

أولاً: إن العبادة في الإسلام (أو ما يمكن أن يصطلح عليه بالصلة الدائمة أو الموقوتة بالله) تقوم على الحب والتعاطف والتناغم (الوجداني) بين الله وعباده، لا على الكره والمقت والصراع والإرهاب، كما هو الحال في عدد من الديانات الوثنية حيث يتعبد الإنسان (الخائف) آلهته الغاضبة المتوعدة كيلا تنزل به غضبها وسخطها. وقد انعكست هذه الصلات بوضوح في التراجيديا اليونانية التي تصور لنا أبعاد الصراع الرهيب بين الآلهة التي تملك الأسلحة جميعاً وبين الإنسان الأعزل الذي لا يملك أي سلاح. وهذه الصورة نفسها انتقلت عبر العصور، محمولة في المعطيات الأدبية عامة والدرامية خاصة

والتي ظلت تحكمها هذه الثنائية الصراعية بين قوى الحضور والغياب وبين الإنسان والآلهة [1]، ولم تكن عبادة الإنسان هناك - إذن - إلا على سبيل إتقاء ضربة يمكن أن تنزل به في يوم قريب أو بعيد. ونحن لا نتوقع من ممارسة تعبدية كهذه أن تعمق الروابط بين الإنسان وخالقه أو تشد من أواصر الحب والمودة بينهما.

في العبادة الإسلامية يبلغ التعاطف والود والمحبة درجاته القصوى حتى أن الله سبحانه ليحدثنا على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بأحاديث (قدسية) ملؤها المحبة والود للإنسان المؤمن الذي يعرف كيف يمارس خلافته الحقة عن الله في الأرض.. ونظرة في مجاميع الأحاديث القدسية تبين لنا بوضوح هذا التعاطف الذي يصل احيانا حدّ الصداقة الودودة الرحيمة بين الله والإنسان (.. من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه. وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به. وبصره الذي يبصر به. ويده التي يبطش بها. ورجله التي يمشي بها. وإن

---

(١) انظر فصل (مشكلة القدر والحرية في المسرح الغربي المعاصر) من كتاب (فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر) للمؤلف.

سألني أعطيته. ولئن استعاذني لأعيذنّه)[٢] (إذا تقرّب العبد إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً. وإذا تقرّب إليّ ذراعاً تقربت منه باعاً. وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة)[٣]!! وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا. حين يبقى ثلث الليل الآخر. يقول: من يدعني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟). وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا وسعديْك. والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم! فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك؟! فيقول: ألا أعطيتكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً)[٤].

---

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري. والحق أن مسألة العلاقات الوجدانية بين الله والإنسان في الأحاديث القدسية. بحاجة إلى دراسة مستفيضة لتوضيح هذا الجانب المهم في التصوّر الإسلامي.

(٤) متفق عليه.

ثانياً: تقوم الممارسة التعبدية في الإسلام على الوضوح والتعقـل والمنطـق والتدبّر في خلـق السماوات والأرض والإنسان، وترفض أشد الرفض. الدجل والخرافة والأساطير والشعوذة والطقوس الغامضة المعقدة. تلك التي تمارس في عبادات وشعائر عدد من الأديان. ولا ريب ان تحول تلك العبادات الى اعتماد أساليب ملتوية كهذه، قائم في نهاية الأمر على ما تمارسه طبقات رجال الدين من تزييف للشعائر الدينيـة، وتحريـف لها.وإضافة الكثير من الألغاز والمعميات والطقوس الأسطورية إليها. لكي تبقى جماهير المؤمنين غير قادرة على الاستيعاب والفهم الكامل لمعتقداتها. كما تبقى خائفة وجلة، الأمر الذي يجعلها دائمة الاعتماد على طبقة رجال دينها لتوضيح بعض الألغاز ومنح مزيد من الأمن والاستقرار. وهذه (الطبقية) الدينية التي تدرّ على رجالها أكداساً من الذهب والفضة. هي التي قادت العبادات والشعائر غير الإسلامية الى هذا المآل الذي يرفضه المنطق الديني أشد الرفض.

أما في الإسلام، حيث لا طبقية دينية، ولا تنظيمات كهنوتيـة، وحيـث النصوص القاطعة، الواردة في القرآن والسنة، في مجال تحديد العلاقات بين الله وعباده، وتنظيم الشعائر الدينية.. فإن العبادة حافظت، وستظل محافظة، على

نقائها ووضوحها وانفتاحها وانسجامها المعجز مع معطيات العقل البشري. ليس هذا فحسب، بل إن العبادة نفسها. صلاة أو حجّا أو صياماً... إنما هي دعوة (للعقل) إلى مزيد من العمل والتأمل والبحث في إعجاز البناء الكوني الذي يقود المؤمنين دوماً إلى مزيد من (الإحسان) في اداء عباداتهم، اولئك الذين (يتفكرون في خلق السموات والأرض) ثم يعقّبون مسلّمين (ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار!!).

ثالثاً: بينا تعتمد العبادات الأخرى وتتعامل مع جانب واحد من جوانب الكينونة البشرية في أداء متطلباتها والاستجابة لنظمها، كالجانب الروحي، كما في المسيحية، أو الجسدي، كما في الديانات البدائية، أو العقلي، كما في بعض الديانات الشرقية... نجدها في الإسلام تعتمد وتشحذ كل مقومات الكينونة عقلاً وروحاً وعاطفة وجسداً ووجداناً.. ونظرة سريعة في أية فاعلية تعبدية إسلامية تطلعنا على هذا التوازن والترابط والتناغم بين مكونات النفس البشرية كلها وهي تمارس تجربتها إزاء الله سبحانه.

ويبلغ هذا التوازن والتناسق والشمول قمة روعته ووضوحه في تجربة الصلاة التي نظمت تنظيماً فنياً وحركياً

معجزاً أريد به أن (تتحرك) خلال الصلاة كل مقومات الإنسان وطاقاته العقلية والجسدية والروحية لكي تعمل منسجمة متوازية، الأمر الذي يذكر الإنسان المسلم خمس مرات - على الأقل- في اليوم بأن حياة الإنسان ووجوده ليسا مزقاً مبعثرة غير منسجمة.. كل منها تتطلب فاعلية غير ما تتطلبه الأخرى، الأمر الذي يصيبه بالتمزق والازدواج والقلق، ويحيل حياته إلى جحيم لا يطاق.. إنما الأمر على العكس: توحّدٌ ذاتي في كيان الإنسان المسلم، في مكوناته الشخصية من جهة، وبينه وبين القوى الخارجية من جهة أخرى.. وانسجام وتوافق بين متطلبات وجوده في الأرض ونداء مصيره في السماء. فإذا كان هذا ما تتطلبه منه الصلاة، وهي شعيرة من أشد الشعائر ارتباطاً بتجربة الإنسان الخاصة وعلائقه الروحية،فكيف بالفاعليات الأخرى في ميدان الحياة الشامل الرحيب؟!

رابعاً: تساهم العبادة الإسلامية مساهمة فعالة في تحرير الإنسان باتجاهات ثلاثة أولها الإتجاه الديني، حيث تتيح للمسلم أن يمارس حريته المطلقة في الاتصال بالله وعبادته من غير ما واسطة من (رجال دين) أو (أصنام) أو (هيئات) و(مؤسسات) دينية، كما تتيح له حرية العودة إلى الله والتوبة إليه مباشرة من غير (صكوك للغفران) يتوقف اصدارها على

رجل أو هيئة دينية متنفذة. وعن طريق هذه الحرية يستطيع المسلم أن يتجاوز القيود والحواجز التي تقف في طريق الكثيرين من أتباع الديانات الأخرى، تصدّهم عن المضي لعبادة الله أو التوبة والإنابة إليه، إلا بعد أن يدفعوا ثمناً أو يحنوا رأساً أو يتعهدوا بطاعة!! وكثيراً ما اتخذت (السلطات) من هذا التنظيم الديني الخاطىء وسيلة للقهر والإرهاب تسلطها ضد جماهير المؤمنين كلما سنح الأمر.

وثانيها الاتجاه السياسي والاجتماعي، حيث تشحذ العبادة الإسلامية قدرة أتباعها على التحرّر اليقظ الدائم من الخضوع لأيـــة قوة في الأرض، ومن إذلال طواغيـــت السياسة والاقتصاد.. ذلك أن هذه الممارسات تعلم المسلم في كل يوم وفي كل ساعة أنه (لا إله إلا الله)، وأن الله سبحانه أكبر من أية قوة في الأرض، فهي أحق بالطاعة والانحناء. وتشعره بيقين كامل أنه ما دام الله سبحانه يمتلك القدرة المطلقة على (الفعل) فإن اللجوء إليه هو خير حماية يمكن أن يستمدها المسلم في صراعه ضد الطواغيت. وفي كلتا الحالتين فإن المسلم، وهو يتعبد الله، يزداد إحساسه بالتحرّر الوجداني وهو يخاطب الله ويتقرب إليه بمواجهة قوى الأرض وطواغيتها.

كما أن المسلم، وهو يمارس عباداته المختلفة، وترسخ في ذهنه تصورات الإسلام القائمة على كرامة الإنسان وتفرده في

الأرض، وتفضيله على بقية الخلائق، يزداد إحساسه بالحرية التي تمنحه اياها هذه الصورة المشرقة السامقة عن مكانة الانسان في الأرض وتعطيه قوة ذاتية كبيرة، وقدرة لا تحدها حدود، في مصارعة القوى المادية والإرادات الهابطة، التي يظن الكثيرون - لعدم تحررهم من المخاوف والضغوط النفسية والاجتماعية- أنها حتميات لا مفرّ من الخضوع لها والتسليم المطلق بها.

ويجيء أخيرا الاتجاه التحريري الثالث وهو اتجاه فلسفي ميتافيزيقي يقوم على تبصيرالإنسان بحريته في تحمل مسؤوليته الكاملة في الحياة الدنيا، وفي تشكيل مصيره.. لأن العبادة في إطارها الشامل جهد وإبداع والتزام وطاعة واختيار.. وكلما نشط المسلم في تحقيق مزيد من فاعلياتها كلما اقترب خطوات من درجة الإحسان، وهي الدرجة (القمة) التي يطمح كل مسلم الى صعودها يوماً بإرادته الخاصة. وهذا الإحساس العميق بحرية الإنسان في تعميق ممارساته التعبدية يعمق في ذهنه وتصوره أحد مفاهيم الإسلام القائمة على حرية الانسان في صياغة وجوده والتوحد بينه وبين مصيره. هذا فضلاً عن أن التعبد يجيء كوسيلة لتحقيق التوبة والتخفيف من خطايا الماضي وأوزاره، وبالتالي فهي الباب الواسع الذي يظل مفتوحاً على مصراعيه. يعلّم الإنسان أنه حرٌ في اختيار

مصيره، حرٌّ في الطريق الذي يسلكه صوب هذا المصير.. وان بإمكانه طيلة مراحل حياته أن يدخل هذا الباب صوب ساحة الله العفوّ الودود الغفور، الذي وسعت رحمته كل شيء..

خامساً: ونجيء بعد ذلك إلى إحدى الميزات الأساسية للعبادة الإسلامية تلك التي تجعل منها (حافزاً) أو (منبهاً) يقود المسلم إلى يقظة الضمير الدائمة وتحمل المسؤولية كاملة والإبداع أو (الاحسان) في إنجاز أي عمل يمارسه واستغلال طاقاته جميعاً في سبيل مزيد من العطاء والانجاز وفق قدراته الذاتية وإمكاناته التي صاغتها ظروفه الوراثية والبيئية. وهذا ولا شك يمثل دافعاً حضارياً خلاقاً لأنه يحفز الإنسان على استنهاض كل طاقاته من أجل العمل، ليس هذا فحسب، بل توجيه هذه الطاقات بما يجعلها تؤدي عملها على (أحسن) صورة وأكملها إذ أن المسلم وهو يتصل بالله ويتذكر إحاطته ورقابته في أعماق نفسه، ووعده العظيم للذين يحسنون أعمالهم ويسارعون في أدائها.. يجد نفسه أمام أحد أمرين: إما الاستجابة لنداء الضمير الديني من أجل أن يحظى بمزيد من السعادة النفسية والثواب ، وهذا يقوده إلى المسؤولية والعمل الدائب والاحسان، وإما إلى التغاضي عن هذا النداء، ورفض تحمل المسؤولية والإساءة في العمل والإنجاز، الأمر الذي يلحق

به تعاسة كبيرة، لأنه كمسلم، يتلقى كل يوم وكل ساعة مئات النذر عن اولئك الذين يتعبدون الله ثم لا يكون لهذه العبادة مردود ايجابي على واقع حياتهم اليومي. ومن ثم يصف القرآن الكريم المؤمنين الصادقين بأنهم (يسارعون في الخيرات) و(أنهم لها سابقون). وفي كلا التعبيرين نلمح البعد الزمني:(المسارعة) و (السبق).. وكأن حياة المسلم المحدودة فرصة (للسباق مع الزمن) في التعبير عن طاقاته جميعاً وتحويلها إلى أفعال ومنجزات حضارية قبل أن تمضي الأيام ويفقد القدرة والصحة والعافية، فلا يعود قادراً على عمل شيء، وبالتالي يفقد فرصة الاختيار الوحيدة التي منحه الله إياها في الحياة الدنيا.

ولو افترضنا - على سبيل المثال - أن المعدل الوسطي لوحدات الطاقة التي يمتلكها كل إنسان تساوي أربعين، فإن الإيمان الحيوي الذي تفجره وتشحذه العبادة الدائمة والتذكر المستمرّ لله سبحانه، سوف تقرّب المسلم من التعبير عن أقصى حد من طاقاته وفق (أحسن) أسلوب، الأمر الذي قد يصل به إلى استغلال خمس وثلاثين أو أكثر من هذه الوحدات.

فلو أن مجتمعاً إسلامياً بعث الإيمان في غالبية أفراده هذا الحافز أو المنبه لاستغلال معظم وحدات طاقته على أحسن وجه، فإن بإمكان هذا المجتمع أن يسابق الزمن فعلاً، وأن يصنع ما يبدو مستحيلاً. ونحن لا يمكن أن نفهم المنجزات

العظيمة والسريعة التي حققها جيل الصحابة والتابعين على صفحة التاريخ. إلا بالرجوع إلى هذا التفسير. وليست تجربة (حفر الخندق) في غزوة الأحزاب. والفتوحات الإسلامية - على سبيل المثال - إلاّ تعبيراً عن هذه المسلّمة في تاريخ الحضارات. وقد دفعت حقيقة ان الإيمان الديني الذي تشحذه وتقويه العبادات المنظمة الدائمة. والذكر المستمر لله سبحانه. يشكّل هذا الدافع الحضاري، دفعت عدداً من فلاسفة التاريخ ومفسريه إلى القول بأن معظم الحضارات البشرية أقامت صرح بنيانها على اسس التجربة الدينية. وان انقداح شرارة الحس الديني في وجدان الإنسان وذهنه هو الذي ساق الكثير من الشعوب والجماعات من الجاهلية إلى التحضّر وأخرجهم من الظلمات الى النور..

سادساً: قد يسأل سائل: إذا كان هدف الإنسان في الكون هو أن يعبد الله (كما يؤكد القرآن الكريم). أفلا يعني هذا أن الإنسان مغبون إذ قدّر عليه أن يقف في موضع يطلب منه فيه العطاء فحسب. دونما أي شيء من الأخذ؟ والجواب: كلا!! لأن العبادة في الإسلام - كما مرّ بنا - هي التجربة الحياتية الكبرى القائمة على توازن فذ عجيب بين الأخذ والعطاء. والإنسان يبلغ قمة إنسانيته عندما يصل تلك النقطة التي يحقق فيها ذلك التوازن. حيث نجده يبلغ اقصى

درجات الانسجام، والتوحّد الباطني، والحيوية الحسيّة، والنشاط الروحي، والتفتح العقلي، والحركة الجسدية.. لأن الله سبحانه - وهو أدرى بخلقه - جعل عبادته، التي هي هدف الخليقة جمعاء، مفتاح هذا المصير الذي يطمح إليه كل إنسان. وأي إنسان في الأرض لا يطمح لأن يكون متوحداً منسجماً حيوياً نشيطاً وحركياً؟!

إن العبادة في الإسلام لا تعني - كما هو الحال في كثير من الأديان والعقائد - حواراً جزئياً مع الله سبحانه في ساعات معينة من الليل أو النهار، حواراً يعبر عن نفسه بأداء حركات محدّدة، واستعادة تعابير وصلوات مكتوبة سلفاً، وهدوءاً جسدياً موقوتاً بزمن هذا الحوار. وما أن تتم هذه العبادة الجزئية أو الصلاة التي لا تعدو أن تكون (صلة وقتية) تسودها الآلية والكسل الروحي في معظم الأحيان، حتى ينقلب الإنسان إلى تيار الحياة الهادر الصاخب لكي (يحرك) مكوناته التي جمّدتها لحظات الصلاة!! ولكي ينطلق متعاملا مع الآخرين بشخصيته الثانية، الشخصية الدنيوية العملية الحركية. أما في الإسلام فإن كل فاعليات الإنسان تبدو عبادة لله، ما دام ذلك الإنسان قد وضع الله نصب عينيه..

وما الصلوات الخمس الا محطات للتذكير، ولشحن الطاقة الروحية للإنسان كي يقدر على مواصلة المسير، والله نصب

عينيه.. وما صوم رمضان إلا محطة سنوية لأداء هذه المهمة.. اما الحج فهو محطة العمر التي يغادرها الإنسان نقياً خفيفاً متجرداً كيوم ولدته أمه.. وما عدا هذا فكل ساعات الليل والنهار عبادة، وكل الممارسات العملية والروحية والفكرية عبادة. وكلما كان الله سبحانه أكثر تجلياً للإنسان خلال إحدى ممارساته، كلما جاءت تلك الممارسة أكثر انسجاماً مع مفهوم العبادة الشامل العميق. وهذا التجلي، أو (الإحسان) بلغة الرسول صلى الله عليه وسلم، لا يتحقق الا بالصبر والمران والدأب، لكي لا يلبث ان تجيء ثماره حلوة كالرحيق المختوم... هنالك حيث تتوازن وتستوي تجربتا الأخذ والعطاء[٥]..

---

(٥) عن الميزة الأخيرة انظر بحث (الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي) للمؤلف، مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٩٧٧.

مؤشرات حول « مشروع كتابة تاريخ العرب والإسلام »

تولت الأمانة العامة لاتحاد الجامعات العربية، في ضيافة من جامعة الكويت، مهمة تنفيذ (مشروع كتابة تاريخ العرب والإسلام) منذ تشرين الثاني عام ١٩٧٤، ولا يزال العمل قائماً، على ضوء مؤشرات عمل كانت اللجان المختصة قد تدارستها وأعلنتها في (ورقة عمل) خاصة بالمشروع، تضمنت عدداً من النقاط بالغة الأهمية. وليس المقال التالي سوى عرض مركز لعدد من المؤشرات التي جاء بعضها تأكيداً لما ورد في ورقة العمل المذكورة، وبعضها الآخر (إضافة) عليه.

١ - البدء بتقديم تحليل موضوعي يتميز (بالشمولية) للتعرف على أهم ملامح التاريخ الإسلامي وخصائصه وسماته وعناصر تفرده ومكونات شخصيته المتميزة من أجل وضع مؤشرات عمل يلتزم بها سائر الباحثين، سواء أكانوا يعملون في حقل صدر الإسلام أم العصر العباسي أم العصور المتأخرة، كيلا تجيء دراساتهم وهي تحمل تناقضاً صريحاً وتفتتاً في

الرؤية، واصطداماً في العرض والتحليل، الأمر الذي يؤول الى إخراج بحث تاريخي لا يملك وحدته المنهجية والموضوعية ولا يحقق هدفاً إيجابياً.

وبعبارة أخرى، سيكون هذا التحليل بمثابة بحث عن الحد الأدنى المشترك الذي يجب أن يلتزم به جميع الباحثين لأنه سيكون الخيط الذي ينتظم أبحاثهم جميعاً، ويجنبها الانفراط والتناثر والاصطدام مما يؤول الى إرباك الطلبة والدارسين الذين سيعتمدون هذا المؤلف، وإثارة البلبلة والتضارب في تصوراتهم وقناعاتهم إزاء معطيات التاريخ الإسلامي.

٢ - التأكيد على ملاحظة الخصائص التي ستتوصل إليها اللجنة المكلفة بالقيام بالتحليل آنف الذكر، والالتزام بمؤشراتها خلال القيام بعملية التأليف. ونحن نحب هنا أن نؤكد مقدماً على أهم هذه الخصائص وأكثرها وضوحاً وثقلاً وإلزاماً:

(أ) التوازن النسبي الذي شهده تاريخنا بين قوى المادة وقيم الروح والذي كان يؤول - رغم اهتزازه ذات اليمين وذات الشمال - الى حماية معطيات هذا التاريخ من الانحراف النهائي صوب المادية أو الانفصال الكلي باتجاه

الروحية. وهو التوازن الذي لا يمكن تجاهله في أية محاولة لدراسة تاريخنا وتفسيره.

(ب) التوازن النسبي بين النزعتين الأخلاقية والمنفعية في السلم والحرب.

(ج) الانفتاح، الذي لا تحكمه عقد ولا حساسيات، على العالم الواسع أخذاً وعطاء.

(د) التوازن النسبي في تلقي المعرفة بين الوحي والعقل والتجريب.

. «إن التاريخ الإسلامي يتميز عن غيره من التواريخ بمعالم وسمات أصيلة تهبه شخصية مستقلة، فهو يعبر أكثر من غيره عن حصيلة أوسع لقاء خلاّق بين السماء والأرض، وعن طموح الانسان المؤمن لإعادة سير التجربة البشرية في مجراها الطبيعي، وانطلاقها نحو هدفها المرسوم في الكون. التاريخ الذي يصور لنا الجهود الكبيرة التي بذلها المسلمون لتشكيل مصير العالم وفق منهج متفرد يجمع في إطار واحد: الظاهر والباطن، والحضور والغياب، والطبيعة وما وراء الطبيعة، والتراب والحركة، والمادة والروح والقدر والحرية، ويفتح أمام الانسان الطريق لتقديم اقصى ما عنده من طاقات في بناء حضارة غير متأرجحة ولا مهزوزة، حضارة تنساح فاعلية

صنّاعها على كل المساحات وسائر القطاعات: الآداب والفنون والعلوم والفلسفة. والقانون والنفس والاجتماع. وتنبثق عن إيمان عميق بدور الانسان في الكون وهدفية فاعليته وتوازنها»[1].

٣ - تحقيق قدر من التوازن بين دراسة الجوانب السياسية - العسكرية. وبين تحليل وفحص الجوانب الحضارية. مع الأخذ بنظر الاعتبار ضرورة أن ينظر الى المعطيات الحضارية باعتبارها أجزاء متفرقة تنتمي الى كلٍّ أوسع يتضمنها جميعاً ويمنحها معنى وهدفاً.

وليس من الضروري بصدد هذه النقطة أن يقف الباحثون عند سائر التفاصيل والجزئيات التي تعج بها مصادرنا القديمة. وبخاصة فيما يتعلق بالجوانب السياسية والعسكرية من تاريخنا. ليس من الضروري أن يقع الباحث أسير هذا الحشد الزاخر من النصوص. ولا بد له، إذن، من أن يتجاوز الجزئيات الى الكليات والوقائع الصغيرة الى الدلالات الخطيرة. ولا يقف عند حدود النص أو الواقعة بل يتعداها الى معناها العميق ودلالاتها الموحية. وحينذاك

(١) انظر بالتفصيل (اقتراحات في التدريس والمنهج التاريخي) للمؤلف. مجلة (حضارة الإسلام) عدد ٩ - ١٠ سنة ١٦.

سيقدر على تحقيق عملية الاختزال والتركيز، إذ أن كل مجموعة من التفاصيل والجزئيات تندرج تحت هذا المعنى أو ذاك وتمنحنا هذه الدلالة أو تلك، في سياق الحركة التاريخية الأكبر حجماً، ومن ثم تغدو هذه الجزئيات عبارة عن مواد كمية، أو نماذج متشابهة، يمكن اعتماد عدد محدود من عيناتها للتوصل الى الصيغة البنائية الأكبر للواقعة التاريخية، والتخلص بالتالي، من ركام التفاصيل الذي يثير من الإرباك في ذهن القارىء أكثر مما يحقق من سيطرة على الحركة التاريخية وتفهم لصيرورتها.

٤ - تحقيق قدر من التوازن بين العرض الاكاديمي الصرف للوقائع التاريخية، سياسية وحضارية، وبين اتخاذ مواقف فلسفية لتفسير هذه الوقائع وتبين عوامل تكوينها ومؤشرات مساراتها وحصيلة مصائرها، شرط أن تندرج هذه المواقف جميعاً في رؤية نوعية متجانسة، وتلتزم الحد الأدنى المشار إليه من الأسس والمواضعات، فلا تتخذ إحداها التفسير المادي منطلقاً لها بينما تتجه الأخرى نحو المثالية أو الحضارية أو الروحية، وإنما تسعى هذه المواقف قدر الإمكان الى اعتماد أكثر الفلسفات انسجاماً وتناغماً مع حركة التاريخ الإسلامي وأكثرها قدرة على تفسيره.

٥ - اعتماد أسلوب نقدي رصين في التعامل مع الروايات التي قدمتها مصادرنا (القديمة) وعدم التسليم المطلق بكل ما يطرحه مؤرخنا القديم، وإحالة الرواية التاريخية - قبل التسليم النهائي بها - على المجرى العام للمرحلة التاريخية لمعرفة هل يمكن أن تتجانس في سداها ولحمتها مع نسيج تلك المرحلة لحمة وسدى؟ هذا فضلاً عن ضرورة اعتماد مقاييس ومواضعات النقدين الخارجي والباطني وصولاً الى قناعة كافية بصحة الرواية.

ويمكن الافادة في مجال النقد الخارجي - الى حد كبير - من علمي (مصطلح الحديث) و (الجرح والتعديل) اللذين مورسا على نطاق واسع في عمليات تمحيص الأحاديث النبوية، ومن كتب التراجم الغنية الخصبة، فما من امة في الارض عنيت بتمحيص مصادر اخبارها وتاريخها كالامة الاسلامية،فهنالك تراجم لنصف مليون رجل اسهموا جميعاً في تقديم الاحاديث والاخبار والروايات التاريخية التي لا يمكن توثيقها والاخذ بها الا بعد فحص اولئك الرجال الذين تناقلوها.

ومن ثم فإن دراسة التاريخ الاسلامي دراسة جادة تستلزم حتماً دراسة هذا الموضوع الخطير لكي تقوم الدراسات التاريخية

معتمدة على أوثق المصادر وادق الأخبار ومنقحة من حشود الدسائس والسموم وسيل الروايات الموضوعة التي نفثتها القوى المضادة في جسد تاريخنا المتشابك الطويل[٢].

ولا بد من الاشارة هنا الى الملاحظة القيمة التي ابداها (محب الدين الخطيب) حول هذا الموضوع،فهو يشير الى أن تاريخ الطبري العظيم لا يمكن الانتفاع بما فيه من آلاف الأخبار إلا بالرجوع الى تراجم رواته في كتب الجرح والتعديل. وإن كتب مصطلح الحديث تبين الصفات اللازمة للراوي، ومتى يجوز الأخذ برواية المخالف. ولا نعرف امة عني مؤرخوها بتمحيص الأخبار وبيان درجاتها وشروط الانتفاع بها، كما عني بذلك علماء المسلمين. وان العلم بذلك من لوازم الاشتغال بالتاريخ الاسلامي.

اما الذين يحتطبون الاخبار بأهوائهم، ولا يتعرفون الى رواتها ويكتفون بأن يشيروا في ذيل الخبر الى الطبري: رواه في صفحة كذا من جزئه الفلاني ويظنون ان مهمتهم انتهت بذلك، فهؤلاء من ابعد الناس عن الانتفاع بما حفلت به كتب التاريخ الاسلامي من ألوف الأخبار. ولو انهم تمكنوا من (علم مصطلح الحديث) وأنسوا بكتب الجرح والتعديل واهتموا

(٢) المرجع السابق.

برواة كل خبر، كاهتمامهم بذلك الخبر، لاستطاعوا ان يعيشوا في جو التاريخ الاسلامي ولتمكنوا من التمييز بين غثّ الاخبار وسمينها، ولعرفوا للاخبار اقدارها بوقوفهم على اقدار اصحابها[٣].

والطبري نفسه يقول في مقدمته « فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه او يستشنعه سامعه، من أجل انه لم يعرف له وجهاً صحيحاً. ولا معنى في الحقيقة. فليفهم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا وانما اتى من بعض ناقليه الينا. وإنما أدينا ذلك على نحو ما ادي الينا ».

٦ - يقابل هذا ضرورة الاعتماد في بناء البحث التاريخي على الواقعة نفسها دون الوقوع في مظنة اعتماد هياكل مرسومة مسبقاً، ووجهات نظر مصنوعة سلفاً، ومحاولة تطويع الوقائع على الانسجام مع هذه الهياكل والوجهات حتى ولو ادى هذا الى تشويه ملامح الواقعة التاريخية. او اعادة تركيبها لكي تنسجم والاطروحات المسبقة، مما نجده واضحاً - على سبيل المثال - في الدراسات التي تنطلق من المفهوم المادي للتاريخ.

---

(٣) المراجع الأولى في تاريخنا. مجلة الأزهر. المجلد ٢٤ج ٢ ص ٢١٠. صفر ١٣٧٢ هـ.

الامر الذي أوقعها في حشد من الأخطاء والتناقضات. ونحن نجد هذا - مثلاً - في موقفهم من حركة الرسول صلى الله عليه وسلم « فبعضهم يرى ان المجتمع العربي (في مكة والمدينة) شهد بداية مجتمع يمتلك الرقيق. بينما يرى (بيجولفسكايا) ان القرآن الكريم يشعر بتركيز مرحلة ملكية الرقيق. ويذهب مع (بلاييف) الى ان المرحلة الاقطاعية هي من آثار اتصال العرب بالشعوب الأخرى. هذا ويرى آخرون ان المجتمع الإقطاعي بدأ بالتكون فعلاً. ومنهم من يرى ان الإسلام يلائم الطبقات المستغلة الجديدة من ملاك وارستقراطية الاقطاع مثل « كليموفيج » ومنهم من يراهُ في مصلحة ارستقراطية الرقيق فقط. في حين ان البعض مثل (بلاييف) يرى ان الاسلام المتمثل بالقرآن لا يلائم المصالح السياسية والاجتماعية للطبقات الحاكمة. فلجأ اصحابه الى الوضع في الحديث لتبرير الاستغلال الطبقي الجديد....

« وفي حين ان بعضهم يقول إن الارستقراطية وحدت القبائل العربية لتحقيق اغراضها. يقول غيرهم ان القبائل كانت تتوثب للوحدة فجاء الاسلام موحداً يعبر عن ذلك التوثب.

«ويضطرب الموقف من نشأة الاسلام ذاته. فبينما يدعي

« كليموفيج » أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) واحداً من عدة انبياء ظهروا وبشروا بالتوحيد وأرادوا توحيد القبائل، يذهب (تولستوف) إلى نفي وجود النبي العربي ويعتبره شخصية اسطورية. وبينما يعترف البعض بظهور الإسلام يذهب « كليموفيج » الى ان جزءاً كبيراً منه ظهر فيما بعد، في مصلحة الاقطاعيين، ونسب اصله الى فعاليات معجزة لمحمد. وتجاوز (تولستوف) الى أن الاسلام نشأ عن اسطورة صنعت في فترة الخلافة لمصلحة الطبقة الحاكمة، وهي اسطورة مستمدة من اعتقادات سابقة تسمى الحنفية »[٤].

٧ - كما أنه يتوجب، في مقابل هذا وذاك، اتخاذ موقف علمي ناقد تجاه معطيات المستشرقين - الغربيين والشرقيين - على مستوى المنهج والموضوع وعدم التسليم المطلق بها أو تجاوزها كلية، لأن هذه المعطيات تتضمن الجيد والرديء، الأبيض والأسود.. والموقف الجاد هو الذي يعرف كيف يفيد مما تقدمه الحركة الاستشراقية دون الوقوع في أسرها على حساب الحقيقة التاريخية.

وهنا أحب أن أقف قليلاً لتبيان بعض المسائل الأساسية

---

(٤) عبد العزيز الدوري (وزملاؤه) تفسير التاريخ - مقال التاريخ والحاضر.

حول هذه النقطة بالذات[٥]:

إن مناهج البحث الغربية (مسيحية ومادية) لا يمكنها بحال أن تقدم تفسيراً معقولاً شاملاً متماسكاً لتاريخنا الإسلامي، فهي إن نجحت في تفسير وتقييم التاريخ الغربي فستخفق حتماً في تفسير وتقييم التاريخ الإسلامي، ذلك أنها مناهج لا تقوم على أساس (متوازن) ينظر إلى القيم الروحية والمادية كعوامل فعالة مشتركة في صنع التاريخ، بل على العكس ، تسعى، بدافع من ماديتها أو علمانيتها، إلى ترجيح الدافع المادي وتقليص مساحة الدوافع الروحية في حركة التاريخ، بل طمسها أحياناً، وإنكارها أساساً - في أحيان ثالثة - كعوامل في تاريخ البشرية.

وهذه المناهج - من جهة أخرى - تقدم تاريخ العالم كله، وبضمنه تاريخنا نحن، من زاوية نظر غربية إقليمية، تجعل اوربا مركزاً للعالم تدور حول قطبه كل المساحات الأخرى في الأرض، وما عليها من دول وشعوب وحضارات، حيث تغدو في معظم الأحيان أشبه بالظلال الباهتة لهيكل

---

(٥) انظر بالتفصيل بحث (اقتراحات في التدريس والمنهج التاريخي): مجلة (حضارة الإسلام) عدد ٩ - ١٠ سنة ١٦ .

التاريخ الأوربي العالي الذي يتميز بالكثافة والامتلاء والإشعاع.

ولا بد من الإشارة هنا إلى تعليق الكاتب النمساوي «ليوبولد ڤايس: محمد أسد» على هذه الرؤية القاصرة فهو يقول:

«لقد مال المفكرون والمؤرخون الأوربيون منذ عهد اليونان والرومان، إلى أن يتبصروا بتاريخ العالم من وجهة نظر التاريخ الأوربي والتجارب الثقافية الغربية وحدها. أما المدنيات غير الغربية، فلا يعرف لها إلا من حيث ان لوجودها، أو لحركات خاصة فيها، تأثيراً مباشراً في مصائر الإنسان الغربي، وهكذا فإن تاريخ العالم وثقافاته العديدة، لا يعدو أن يكون في أعين الغربيين، تاريخاً موسعاً للغرب. وطبيعي أن المنظر من هذه الزاوية الضيقة لا بد أن يوقع العين على مشهد مشوه غير سليم. إن الأوربي أو الأمريكي العادي بما اعتاد أن يطالع من الكتب التي تعالج أو تبحث مسائل مدنيته الخاصة بتبسيط وتوسع يضفيان عليها ألواناً حية، دون أن تلقي على سائر أجزاء العالم سوى نظرات هنا وهناك، ليستسلم ويرضخ بسهولة ويسر إلى الوهم الخادع الذي يصور أن الخبرات الثقافية الغربية، ليست اسمى من سائر

الخبرات الثقافية في العالم كله فحسب، بل لا تتناسب معها على الإطلاق. وبالتالي ان طريقة الحياة الغربية هي النموذج الصحيح الوحيد الذي يمكن أن يتخذ مقياساً للحكم على سائر طرائق الحياة، لأن كل مفهوم ثقافي أو مؤسسة اجتماعية أو تقييم أدبي يتعارض مع النموذج الغربي، إنما ينتمي - حتماً- إلى درجة من الوجود أدنى وأحط. ومن هنا نرى أن الغربي - تمثلاً باليونان والرومان - يجب أن يعتقد أن جميع تلك المدنيات ليست - أو لم تكن - إلا تجارب متعثرة في طريق الرقي، هذا الطريق الذي يتبعه الغرب بكثير من السداد والعصمة من الخطأ. أو أنها في أفضل الأحوال - كما هي الحال في مسألة المدنيات السالفة التي سبقت مدنية الغرب الحديث مباشرة - ليست أكثر من فصول متتابعة في كتاب وحيد فريد آخره - غير شك - المدنية الغربية»[٦].

وما من شك في أن اشد متطلبات (إعادة كتابة التاريخ الإسلامي) إلحاحاً هي تخريج مثقفين معتزين بتاريخهم وأمتهم وحضارتهم، شاعرين في قرارة نفوسهم بالاستعلاء الثقافي والحضاري على بقية الأمم والتواريخ والحضارات، لا سيما وان

(٦) الطريق إلى مكة، ط ١، ص ١٧ - ١٨ ترجمة عفيف بعلبكي.

الشرق عامة والأمة العربية الإسلامية خاصة تمثل في حضارتها - كما قلنا - لقاءات معطاءة بين السماء والأرض. وتنبثق - في كثير من الأحيان - عن مصادر عليا للمعرفة والتوجيه لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. وإن هذه النقطة بالذات هي ما يجب أن يؤكد عليه دائماً في عملية التأليف الجديد لكي تغرس في كيان المثقفين مشاعر الاستعلاء وإبعاد أي شعور بالنقص تجاه الحضارات الأخرى. وقطع الطريق على أية محاولة لتكريس التبعية الفكرية لدى هؤلاء.

ثم إن هذه المناهج الغربية - من جهة ثالثة - عندما تدرس تاريخنا بالذات تتحكم فيها عصبيات شتى ورواسب نفسية ومخلفات ثقافية تاريخية وأطماع سياسية واقتصادية وتحزبات دينية ومذهبية وايديولوجية وعرقية. لكونها نشأت وتبلورت في القرن الذي بلغت فيه حركة الاستعمار القديم للعالم الإسلامي المتعب أوجها.

ولنستمع إلى ليوبولد ڤايس (محمد أسد) مرة أخرى وهو يحلل هذه المواقف الفكرية المتعصبة تجاه أوطان غدت في نظر (الصليبية الثانية) أرضاً مواتاً يجب إحياؤها لصالح الكنيسة والدولة الغربية. إنه يقول:

«أما فيما يتعلق بالإسلام فإن الاحتقار التقليدي أخذ

يتسلل في شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية. وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين أوربا والعالم الإسلامي (منذ الحرب الصليبية) غير معقود فوقه بجسر. ثم أصبح احتقار الإسلام جزءاً اساسياً من التفكير الغربي. والواقع أن المستشرفين في الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الإسلامية. وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير في موقف الأوربي من (الوثنيين). غير أن هذا الالتواء العقلي قد استمر. مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير، ولم يبقَ لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسيء توجيهها. أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة وخاصه طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلقتها الحروب الصليبيــة. بكل ما لها من ذيول. في عقول الأوربيين»[٧].

ومن ثم فإن تطبيق هذه المناهج في تأليف وتدريس التاريخ الإسلامي في مؤسساتنا وجامعاتنا قد آتى ثماره المُرَّة منذ أول جيل خرجته هذه الجامعات، وسيظل يقدم هذه

---

(٧) الإسلام على مفترق الطرق. ط ٦. ص ٦٠ - ٦١ ترجمة عمر فروخ.

الثار إلى أن يحدث المؤرخون الأكاديميون انقلاباً جذرياً في الأسس التي يعمل بموجبها في التأليف والتدريس.

إن تطبيق منهج (قاصر) في دراسة التاريخ الإسلامي، من شأنه أن يغفل واحداً أو أكثر من ملامحه الأساسية ومقوماته الأصيلة، سيؤدي ولا شك إلى فهم ناقص وتحليل مضطرب لمعنى هذا التاريخ وطبيعة مجراه.

إن المهندس الميكانيكي لا يطلب منه رسم تصميم لعمارة شاهقة، وعالم الفيزياء لا يجازف بإقامة جسر على نهر عظيم، والمهندس المعماري بدون أدوات الرسم ومستلزماته، لا يستطيع تجسيد ما في مخيلته من مساحات وأبعاد. وهكذا فإن تطبيق المنهج المادي العلماني الغربي، بقطاعيه المسيحي والديالكتيكي في دراسة تاريخنا أحدث من الأخطاء والثغرات ما قد آن الأوان لتداركه على أيدي الرجال المخلصين الذين سيأخذون على عاتقهم مهمة تنفيذ مشروع (كتابة تاريخ العرب والإسلام) وفق منهج يقدم من الأدوات والامكانيات ما يساعد المؤرخ على عرض وقائع هذا التاريخ بأكبر قدر من الأمانة والموضوعية.

ولا ريب أن من أهم سمات هذا المنهج أنه شامل لكل الدوافع، والقيم التي تصنع التاريخ، غير عاجز أمام حدود

الواقع الملموس الظاهر للعيان، ويتيح من الرؤية البعيدة ما يستطيع المؤرخ معها أن يقدم تقييماً أصيلاً لأحداث التاريخ الإسلامي وشخصياته. إن تاريخنا الإسلامي بحاجة ماسة إلى طبقة جديدة من المؤرخين يعيدون عرض هذا التاريخ وتحليله بكل حيويته وتدفقه، وامتداداته الأفقية والعمودية، وعناصره الظاهرة والباطنة، مما سيتيح - بلا شك - فهماً أعمق لهذا التاريخ، وإدراكاً أشد تركيزاً لعناصر تطوره، ورؤية أكثر وضوحاً لخطوط سيره ومنعطفاته الفاصلة. وعسى أن تحقق لجان (مشروع كتابة تاريخ العرب والإسلام) هذا الهدف العزيز الكبير.

٨ - يجب أن لا يقع العاملون في هذا المشروع تحت وطأة المواضعات المعاصرة في كافة مناحي الحياة البشرية: السياسية والاقتصادية والأخلاقية والروحية والاجتماعية، لأن هذا من شأنه أن يصبغ رؤيتهم للتاريخ الإسلامي بألوان تستمد تركيبها من واقع عصرنا الراهن، الأمر الذي قد يفسد موضوعية الرؤية، وبالتالي يصد المؤرخ عن الوصول إلى كنه الوقائع التاريخية التي قد لا تمت بصلة إلى مواضعات القرن العشرين. صحيح أن على المؤرخ أن يعتمد كل ما يقدمه هذا القرن من علوم وأدوات موصلة أو مساعدة على كشف الحقيقة التاريخية، ما كان بميسور مؤرخنا القديم أن يحظى بعشر

معشارها. لكن اعتماد هذه العلوم، وأكثرها ميداني أو تجريبي، للإعانة على كشف الواقعة التاريخية شيء، والتأثر بفلسفة العلم الظنية التخمينية، وما أحدثته من إسقاطات سيئة في عالمي النفس والمجتمع، في ميداني الضمير والسلوك، شيء آخر، قد يجعل المؤرخ أسير مواضعات زمنية نسبية متغيرة تفرض عليه نمطاً من التفكير في تعامله مع حشود من الوقائع التاريخية، فلا يراها كما يوجب البحث الموضوعي أن يراها، وإنما يقوم - إذا صح التعبير - بعملية تمرير لهذه الوقائع من خلال تلك المواضعات. فما تلبث حينذاك أن تفقد لونها الأصيل وملامحها الخاصة وشخصيتها المتميزة، لكي تقتبس ألوان هذه المواضعات وملامحها وخطوطها وتضيع.

٩ - من المستحسن إزاء ذلك كله، أن تشكل لجان على قدر عال من التخصص لوضع مؤشرات عمل في الاتجاهات الثلاثة التالية:

(أ) نقد الرواية الأساسية لدى المؤرخ القديم، وتصنيف الروايات حسب قوتها وضعفها.

(ب) نقد مواقف فلاسفة التاريخ الذين تعاملوا مع تاريخنا ودرسوا جوانب منه، وتحديد مدى قرب معطياتهم أو بعدها عن الحقيقة التاريخية.

(ج) نقد معطيات الحركة الاستشراقية، بجناحيها المسيحي والمادي، وتحديد المساحات التي يمكن الإفادة الفعالة منها، وتلك التي يجب تجنبها، مع تبيان أبعادها اللاموضوعية.

١٠ - تجاوز منطق التقسيم الزمني القائم على التغير الدائم في الحكام والأسرات الحاكمة، واعتماد مقاييس التغير النوعي في الحركة التاريخية بين مرحلة ومرحلة، وعصر وعصر، وعلى سائر المستويات السياسية والعقيدية والحضارية. أي أن التقسيم الزمني للمراحل التاريخية يجب ألا ينصب على المتغيرات الفوقية بل يمتد إلى قلب المجتمع في تمخضه وتحوله الدائم. أما على المستوى المكاني فإن الأفضل اعتماد الوحدات الحضارية (المتنوعة) ضمن إطار وحدة الحضارة الإسلامية، هذه الوحدات المتميزة التي قد تشهد أكثر من كيان سياسي وقد تمتد إلى أكثر من إقليم أو بيئة جغرافية.

١١ - تقديم عروض تاريخية متوازية زمنياً بين ما كان يجري في مرحلة ما من مراحل التاريخ الإسلامي، وما كان العالم المحيط يشهده في المرحلة نفسها من أحداث، من أجل تكوين نظرة شمولية لدى الدارس أو القارىء، تمكنه من فهم طبيعة العلاقات بين الإسلام والعالم الخارجي من خلال تحقيق قدر من السيطرة على ما كان يحدث في المرحلة التاريخية - الزمنية الواحدة.

إن يتبعون إلاّ الظن!!

(١)

جاء الإسلام وتكامل.. رسمت خطوطه العريضة.. وفي مدى دعوة الرسول صلى اللّه عليه وسلم أقفلت هذه الخطوط.. لم تعد هنالك ثغرة ينفذ منها الاختلال، أو يحاول إنسان ما سدّها مستنداً إلى نسبية الزمان والمكان، فلا تواؤم بين النسبة والمطلق.. جاءت الخطوط الكبرى للإسلام نتيجة إشراف..إشراف يطل على الزمان وعلى المكان.. إشراف هو فوق زمان الإنسان وفوق مكانه.. إشراف يرى بداية الشيء ونهايته، يراه كله.. جاءت هذه الخطوط من صانع الزمان والمكان.. من مدرك مطلق هذين البعدين.. من اللّه الذي وسع كل شيء علماً!!

(٢)

التخبط العقائدي الذي عانته البشرية يعود في النهاية إلى

جهل بطبيعة الإنسان، بفطرته الأصيلة من جهة، وببعدَيْ الزمان والمكان من جهة أخرى.. ولقد أسر هذا الجهل المحزن كل الحركات والعقائد الوضعية على مدار التاريخ، تلك التي وجدت نفسها تصطدم أخيراً - طال الوقت أم قصر- بجدران هذا الجهل، ومن ثم لم يحدثنا التاريخ عن مبدأ وضعي امتد حتى شمل التاريخ كله، عن حركة بشرية كتب لها الخلود.. كلها ذهبت، وأتى غيرها وذهب، وطلع غيرها وهو في طريقه إلى الذهاب!!

(٣)

كل مذهب وضعي باطل، سواء في حدود ذاته، أو في حدود زمان الإنسان ومكانه، لأنه في كلتا الحالتين سوف يترك نتيجة الجهل والخيبة أشياءً حضارية تنسحق، وأشلاءً إنسانية تتبعثر، ودماءً تنساب، وشقاءً مرّاً يطحن الوجود البشري طحناً!!

(٤)

البشرية - إذن - بحاجة إلى المذهب المطلق، إلى العقيدة الكلية، إلى الحركة الشاملة التي لا تصطدم بطبيعة الإنسان وتكوينه الذاتي، ولا تعجز عن متابعة الزمان والمكان

في امتداديهما اللذين يغيبان عن الأنظار.. من هنا تتضح (الغفلة) التي وقعت فيها كثير من المذاهب والفلسفات، سيما تلك التي ادعت - زيفاً وجهلاً - القدرة على التنبؤ والنفاذ عبر جدران الزمان والمكان، وأعلنت - بعد جولتها الظنّية تلك - أنها أحاطت بكل شيء علماً ﴿وما لهم به من علم إن يتّبعون إلاّ الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾!!

(٥)

اللّه وحده هو القادر على بعث المذهب المطلق لأنه - جلت قدرته - خالق الإنسان، وصانع الزمان والمكان.. هو - سبحانه - فوق هذه الأبعاد الثلاثة يطل عليها من ملكوته، فيرى بدايتها ونهايتها على السواء، يراها من حيث هي لأنه الخالق والصانع.. ومن ثم جاء الإسلام من خلال هذه الرؤية الإلهية التي تنفذ عبر جدران الزمان والمكان، وتعرف كيف تتعامل مع فطرة الإنسان. ويوم أن تمت عملية الصياغة المذهبية المطلقة هذه على الأرض. في أعقاب تاريخ طويل شاق ومشرّف قاده الأنبياء جميعاً عليهم السلام، أعلن سبحانه على لسان رسوله العظيم نداءه الأخير الخالد للبشرية جميعاً عبر حواجز الزمان والمكان: ﴿اليوم!! أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾!!

(٦)

إن فطرة الإنسان الأصيلة، في تحركه عبر الزمان والمكان، لا تتغيّر أو تتبدل، وهي ذلك التركيب المتوازن المعجون بإعجاز رائع من عنصري الروح والتراب، والمنسوج بتكامل عجيب من قماش السماوات والأرض: سداه نداء السماء وصفاؤها، ولحمته شد الأرض وكدرها.. إن فطرة الإنسان هذه تطمح دوماً لأن تعود متوازنة متكافئة كما أراد لها الله أن تكون، رغم عوامل التمزيق والتحريف والاختلال التي تجابهها بها مبادىء وضعية لم تعرف ولن تعرف كيف تحيط علماً بفطرة الإنسان.. وهكذا يبقى نداء الفطرة هو النداء الأصيل الوحيد في تاريخ الناس، ولن تسكته أبداً ركامات المادية الطاغية أو الروحية السالبة التي لا يشدها إلى الأرض سبب من الأسباب.. وقيمة الزمن تتلاشى - إذن - إزاء هذا الثبات والصمود في طبيعة النوع الإنساني وتكوين الفطرة الآدمية.. لنفرض أننا قسمنا هذا الزمن إلى أجزاء متعاقبة، فإن كل جزء سيكون كالذي سبقه وكالذي سيليه.. ذلك أن فطرة الإنسان هي الفطرة في كل زمان كان، أو هو كائن، أو سيكون!!

(٧)

المذهب الذي يطمح لأن يخلد في الأرض أكثر هو ذلك الذي يعرف كيف يتعامل مع الإنسان، ويلبّي نداء فطرته الذي لا يسكت أبداً.. وما خطوط الإسلام الكبرى في شتى أبعاده العقيدية إلا مصداقاً لهذا التعامل الفذّ مع الإنسان والتلبية المعجزة لنداء فطرته الخالد.. الخطوط التي تكتسب خلودها ودوامها من قدرتها على هذا التعامل عبر إطارات الزمان والمكان، واتساعها العجيب الذي يضم كل تحديات التاريخ وقفزاته وتمخضه الدائم.. ومن ثم تبقى هذه الخطوط ثابتة دائمة لا تمسّها يد التغيير والتحريف مهما تغيرتْ الأماكن ودارت عجلة الزمان..

(٨)

عبر المساحات الشاسعة التي أتيح للإنسان أن يتحرك خلالها في تاريخه، منحه الاسلام حرية تَحدَّتْ ولا تزال كل الحريات التي منحها مذهب من المذاهب لمعتنقيه.. حرية في الاجتهاد والاستنباط والقياس وإعمال الذهن في مجابهة المشاكل والتحديات التي يطرحها دوماً مرور الزمان أو اختلاف المكان.. وإذ كان الفكر ليس بمحفوظ دوماً من أن يفرط ويشذ عن الطريق المستقيم لأنه متفاعل - حتماً - مع

طبيعـة الزمـان الآني وظروف المكـان المحـدودة، متأثر - دوماً - بانحرافاتها الطارئة.. لذا كانت الخطوط الكبرى في شريعة الإسلام بمثابة الضمانات التي تقف بوجه أي انحراف قد تجر الإنسان إليه حركة التاريخ التي لا تعرف أحداً.. الخطوط الكبرى هي الإشارات الواضحة الثابتة على طريق الحرية الانسانية وهي تصنع حاضر الإنسان ومستقبله دون أن تفقده توازنه الخلاق بين المادة والروح، ودون أن تنحرف به صوب كهف من الكهوف التي يعجّ بها تاريخ بني آدم..

(٩)

الانحرافات التي عانتها البشرية، عبر تاريخها الطويل. إنما هي انحرافات طارئة لا تمسّ جوهر الإنسان.. كل موجود انحرف بذاته، سواء كان هذا الموجود فرداً أم جماعة أم قبيلة أم شعباً أم أمة.. وبمرور الزمن سرت عدوى انحرافه إلى موجودات أخرى، وإذ كـان الفكر البشري وليد بيئته وتاريخـه، كان إطلاق العنان له في حل قضايا التاريخ والوجود، دونما إشارة من فوق، خطيئة كبرى بحق الإنسان. لأن حرية مرتجلة كهذه إنما هي تعميق للانحراف عن الجادة. وتأصيل للمروق عن الفطرة المتوازنة، وتعذيب للإنسان.. ومن ثم يجيء الايمان المدرك لخطوط الإسلام الكبرى ضماناً

لعدم الوقوع في خطيئة كهذه، استناداً إلى الإشارات الأبدية التي نصبها الرسول الكريم على طريق المسيرة البشرية في الحياة الدنيا....

(١٠)

هكذا كان الإسلام، وهكذا سيظل، كلٌّ متكامل جاء نتيجة إشراف.. معرفة مطلقة بطبيعة الإنسان، بمطلق زمانه ومكانه، فتقرر له الخلود والاستمرار.. ومأساة البشرية أن أربابها وواضعي مذاهبها وعقائدها يطمحون جميعاً إلى أن تحصل مذاهبهم على صفات الخلود والاستمرار، لكي يضمنوا ربوبيتهم في حياتهم وبعد الممات.. وهم من أجل ذلك مستعدون لأن يمارسوا كل أنواع الظلم والقهر والتعسّف والاستبداد، اعتقاداً منهم أن خلود مذاهبهم يتحقق في اللحظة التي يتحول الناس فيها إلى قطيع من الأغنام ويختفي آخر رجل يستطيع أن يقول كلمة (لا)..

وهم - في غمرة طغيانهم وتجبرهم في الأرض - ينسون حقيقة أن كل مذهب يضعه إنسان ما، سيؤول يوماً إلى البطلان والزوال، مهما كانت القوى التي تسهر على حمايته وتفرضه على عقول الناس وأفئدتهم، ذلك أنه سيرتطم - إن عاجلاً أو آجلاً - بتعقيدات النفس البشرية وجدران

الزمان والمكان.. وينسون - قبل هذا - أن هنالك قوة واحدة في الكون بمقدورها أن تنشيء المذاهب التي تتجاوز مأساة الارتطام والزوال.. ذلك هو اللّه ﴿الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾!!

رحلة مع عالم الحيوان في كتاب الله

لفتت نظري أسماء بعض الحيوانات التي سميت بها سور القرآن الكريم: البقرة، الأنعام، النحل، النمل، العنكبوت، الفيل.. فآثرت أن أقوم برحلة سريعة مع هذا العالم في كتاب الله..

وكثيرة هي التعاليم والقيم والحقائق التي يعلمنا إياها القرآن، بأسلوبه الالهي المؤثر، المقنع، وهو يتجول معنا في عالم الحيوان.. من أصغر مخلوق فيه لا تكاد تراه العيون.. حتى أكبرها حجماً..

وقد كتب أجدادنا المسلمون الكثير عن هذا العالم: الجاحظ، الدميري، القلقشندي، النويري، العمري.. إلى آخره.. وقفوا عنده وأطالوا الوقوف، مستمدين منه القيم والتعاليم والطبائع والأسرار، ومروّحين على أنفسهم بالمتعة والطرافة والجمال.. أما المفسّرون فلم يكونوا بأقل منهم اهتماماً.

وفي القرون الأخيرة احتل علم الحيوان في الدراسات النظرية والتجريبية، وفي المؤسسات الأكاديمية والعلمية، مكاناً كبيراً.. ولا يزال..

فلنبدأ الرحلة..

(١)

يحدثنا القرآن الكريم، في آيات عديدة عن أن عالم الحيوان، بأنواعه وفصائله وأصنافه... بخصائصه وغرائزه وطبائعه.. ببنيته وتركيبه وهندسته، إنما هو (دليل) من عشرات الأدلة على إعجاز الله في خلقه، وتدبيره الدائم لمخلوقاته، أياً كان موقع هذه المخلوقات في معجزة الخلق، وأياً كان دورها في مسرحه، وأياً كان حجمها في صنوفه..

منح الحيوان قدرة غريزية في البحث عن الطعام وتوفيره وخزنه، وإمكانية فذة على الحركة والطيران والتكيف لتأمين حاجاته وتمكينه من مواصلة البقاء إزاء المصاعب والمخاطر والتحديات.. ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، كل في كتاب مبين﴾[١].

﴿..ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها..﴾[٢].

---

(١) هود ٦ (٢) هود ٥٦

﴿أَلَمْ يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾[٣]

﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[٤]

﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾[٥]

﴿أَوَلَمْ يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن، ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير؟﴾[٦]

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟﴾[٧]

وثمة ممارسات حيوانية معقدة لصنع الطعام، أشد إعجازاً، يمكن أن نتبينها في صناعة اللبن والعسل.. أية غريزة مركبة مودعة في الأنعام والنحل لإنتاج هذين النوعين الضروريين من الطعام، ليس للحيوان فحسب، بل للإنسان كذلك؟

﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فَرْثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾[٨]

﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها، ولكم فيها

---

(٣) النحل ٧٩
(٤) طه ٥٠
(٥) العنكبوت ٦٠
(٦) الملك ١٩
(٧) الغاشية ١٧
(٨) النحل ٦٦

منافع كثيرة، ومنها تأكلون﴾[9]

﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذُلُلاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾[10]

لكن هذه الممارسات كلها لا تعدو أن تكون شيئاً إزاء المعجزة الكبرى التي لم يتح للعلم، على تقدمه، ولن يتاح أغلب الظن، كشف سرّها المكنون، وفك لغزها المحيّر.. معجزة الحياة... وهكذا يدعونا كتاب الله إلى أن نضرب في الأرض دارسين، باحثين، متمعنين، لمتابعة بدايات الخلق، هنالك حيث تتخلق معجزة الحياة، وتتنوع - من ثم - صنائعها وبدائعها:

﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير﴾[11]

﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ..﴾[12]

---

(9) المؤمنون 21

(10) النحل 68 - 69

(11) العنكبوت 20

(12) فاطر 28

ها هنا.. إزاء هبة الله التي لا تدركها العقول، وإزاء التنوع الفذ الذي انبثق عن هذه الهبة... إزاء مهرجان الخلق ذي الألوان المختلفة.. لا يمكن للمرء إلا أن ينحني أمام مشيئة الله إذعاناً وإعجاباً.. والقرآن الكريم يؤكد أكثر من مرة على أن بعث هذه المخلوقات إلى الوجود لا يقل إعجازاً عن خلق السماوات والأرض.. والإنسان.

﴿..وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة..﴾[13]

﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة ,وهو على جمعهم - إذا يشاء - قدير﴾[14]

﴿وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون﴾[15]

وإنه لتأكيد مستمر على أن هذه الخلائق، بكل ما تحمله في خلقها وتركيبها وغريزتها وممارساتها من إعجاز. إنما هي (آيات..) لكل عالم جادّ تسوقه الأدلة والبراهين إلى مواقع الايمان..

وما يلبث القرآن أن يطرح تحديه الذي يجيء بمثابة القول

---

(١٣) لقمان ١٠

(١٤) الشورى ٢٩

(١٥) الجاثية ٤

الفصل في هذا المجال:

﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه؟﴾[16]

لا شيء!!

(٢)

وليس تقديم البرهان المشهود على إعجاز الخلق الإلهي وتدبيره.. هو الهدف الأوحد من وراء إخراج هذا المهرجان الحيواني ولفت الأنظار إليه.. هنالك - أيضاً - (تسخير) هذا العالم لصالح الإنسان سيد المخلوقات وأكرمها عند الله.. ومنحه (المنفعة) التي تعينه على مواصلة مهمة استخلافه الحضارية في العالم، في أمسّ حاجاته اليومية وأكثر ضروراته الحيوية إلحاحاً: الطعام، الشراب، اللباس، السكن، الأثاث، النقل، والقتال:

﴿ومن الأنعام حمولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله..﴾[17]

﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً، ولباس التقوى ذلك خير..﴾[18]

---

(١٦) لقمان ١١

(١٧) الأنعام ١٤٢

(١٨) الأعراف ٢٦

﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون.. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها..﴾[19]

﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً..﴾[20]

﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾[21]

﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها، ولكم فيها منافع كثيرة، ومنها تأكلون. وعليها وعلى الفلك تحملون﴾[22]

﴿أولم يروا أنا خلقنا مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون؟ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون؟ ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون؟﴾[23]

﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون. ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون﴾[24]

---

(١٩) النحل ٥ - ٩
(٢٠) النحل ١٤
(٢١) النحل ٨٠
(٢٢) المؤمنون ٢١ - ٢٢
(٢٣) ياسين ٧١ - ٧٣
(٢٤) غافر ٧٩ - ٨٠

﴿والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾[٢٥]

﴿والعاديات ضبحاً. فالموريات قَدْحاً. فالمغيرات صبحاً. فأثرنَ به نَقْعاً. فوسطن به جمعا﴾[٢٦].

(٣)

ولكن القرآن الكريم وهو يؤكد على (المنفعة) المتأتية عن عالم الحيوان، لا يغض، انطلاقاً من منهجه الوسطي الشامل الذي يتعامل مع الحقائق والظواهر من جوانبها كافة، خلافاً لمناهج (الوضعيين)، لا يغض من قدر الجانب الآخر الذي يمنحه هذا العالم: الجمال..

ذلك أن الحياة البشرية، بكل ما تقوم عليه وتتمخض عنه من علائق وروابط وممارسات والتزامات، ليست سلوكاً منفعياً (براغماتياً) صرفاً.. كما أنها ليست تهويماً أو تعشقاً جمالياً (رومانسياً) صرفاً.. إنها هذا وذاك، وبهما معاً، تكسب استمرارها وديمومتها وقيمتها ومتعتها أيضاً:

---

(٢٥) الزخرف ١٢

(٢٦) العاديات ١ – ٥

﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سَوْآتِكم وريشاً، ولباس التقوى ذلك خير..﴾[27]

﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون.. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾[28]

﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه إنما يخشى الله من عباده العلماء..﴾[29]

﴿إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد. فقال إني احببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب. ردّوها علي، فطفق مسحاً بالسوق والاعناق﴾[30]

﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير﴾[31].

حتى الخيول وهي تركض إلى المعارك، تقدح الأرض وتثير النقع، ثم تلتحم بالجموع المتصارعة،حتى الخيول تمنح

(٢٧) الأعراف ٢٦

(٢٨) النحل ٥ – ٨

(٢٩) فاطر ٢٨

(٣٠) ص ٣١ – ٣٣

(٣١) الملك ١٩

بحركتها الايقاعية المثيرة هذه.. جمالاً:

﴿والعاديات ضبحاً. فالموريات قدحاً. فالمغيرات صبحا. فأثرن به نقعا. فوسطن به جمعا﴾[٣٢].

(٤)

والقرآن الكريم لا يقف عند حد (المنفعة) و (الجمال) التي يمنحها عالم الحيوان لبني آدم... ولكنه يخطو خطوة أخرى. في الاتجاه نفسه. فيرسم لنا بآياته البينات ذلك التناغم والتوادد والتعاطف والحوار بين خلائق الله كافة حيواناً وإنساناً.. فيشيع في العالم جوّاً من الإلفة والمحبة والانسجام. ويؤكد العناصر المشتركة بين الطرفين في مادة الخلق. وهيكله العام. وأصله وتركيبه..

﴿.. وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة..﴾[٣٣]

﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم. ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾[٣٤]

---

(٣٢) العاديات ١ - ٥

(٣٣) البقرة ١٦٤

(٣٤) الأنعام ٣٨

﴿والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجْلين ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله ما يشاء، ان الله على كل شيء قدير﴾(٣٥)

﴿ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه..﴾(٣٦)

﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾(٣٧)

﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت ايدينا أنعاماً فهم لها مالكون؟ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون؟﴾(٣٨)

﴿.. جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الانعام أزواجاً يذرؤكم فيه..﴾(٣٩).

بل إن القرآن الكريم يقدم لنا صوراً طريفة عن حوار يدور بين الإنسان والحيوان، فتزداد الإلفة وتتوثق الوشائج ويعمق الانسجام:

﴿وورث سليمانُ داود وقال يا أيها الناس عُلِّمنا منطق

(٣٥) النور ٤٥
(٣٦) فاطر ٢٨
(٣٧) ياسين ٣٦
(٣٨) ياسين ٧١ - ٧٢
(٣٩) الشورى ١١

الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين. وحُشِر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون. حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يَحْطِمَنَّكُم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾[٤٠].

﴿وتفقد الطير فقال: ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين؟ لأعذِّبَنَّهُ عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينّي بسلطان مبين. فمكث غير بعيد فقال: أَحطْتُ بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين...﴾[٤١].. والقصة بعد هذا معروفة[٤٢]، والطائر ها هنا لا يدخل طرفاً في الحوار بين الإنسان والحيوان فحسب، ولكنه يلعب دوراً تاريخياً بإرادة الله في صراع الحق ضد الباطل.. دور السفير بين سليمان النبي (ع) وبين ملكة تسجد وقومها للشمس من دون الله.. ويكون الانتصار لمعسكر التوحيد.. وهذا يذكرنا بواقعة الفيل

---

(٤٠) النمل ١٦ - ١٩

(٤١) النمل ٢٠ - ٢٣

(٤٢) انظر النمل ٢٤ - ٤٤

الشهيرة حيث سعى الحاكم الحبشي إلى استباحة الكعبة، بيت الله الحرام، وتدميرها، فحرن الفيل عند الأبواب وأبى أن يتقدم لتنفيذ أوامر سيده.. وكان ما كان، مما قصّه علينا القرآن ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟ ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجّيل. فجعلهم كَعَصْفٍ مأكول؟﴾[43].

إن الفيل يقف ها هنا مع الحق ضد الباطل في جولة من جولات الصراع الأبدي بينهما.. تماماً كما وقف سلفه الهدهد من قبل.. وفي الجولتين كان الانتصار للحق..

إنه، كما يعلمنا القرآن، عالم يسوده التوادد وتحكمه المحبة والتعاضد بين إنسانه وحيوانه، ولهذا دلالته العميقة بصدد علاقة الإنسان بالعالم كله.. فليس العالم، كما يسعى معظم الوضعيين إلى تصويره، مسرح دموي تسوده شريعة الغاب.. بين الإنسان والحيوان.. وبين الإنسان والعالم.. وبين الإنسان والإنسان!!

(٥)

هنالك - أيضاً - القيم والتعاليم التي لا يبخل بها عالم

---

(٤٣) الفيل ١ - ٥

الحيوان على من هو أرقى منه مكانة وأفضل موقعاً: الإنسان. ولشد ما اعتمدت الممارسات التربوية، ولا تزال، معطيات هذا العالم لتنفيذ قدر من أهدافها، مع الأطفال.. وإذا كان هؤلاء الصغار لا يتعلمون - في معظم الأحيان - إلا من خلال وسيط، فإن الكبار يمكن أن يتعلموا مباشرة..

منذ لحظات التاريخ المبكرة.. يقف قابيل (القاتل) محتاراً إزاء جثة أخيه هابيل، لا يدري ماذا يصنع بها، بعد فعلته النكراء تلك، فيبعث الله إليه غراباً لكي يعلمه كيف يكون الدفن: ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه. قال: يا ويلتَى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي؟ فأصبح من النادمين﴾[٤٤]... ومنذ ذلك اليوم وبنو آدم يوارون سوآت أمواتهم بدفنهم في التراب.. وماذا يكون الإنسان بعد موته وتفسّخه سوى سوأة يتوجب، بسرعة، تغييبها عن الأنظار؟!

والنمل ذلك العالم المدهش يعلمنا في حواريته الطريفة، آنفة الذكر، مع سليمان النبي (ع) كيف يتوجب أن تكون العلاقة بين خلائق الله، بين الإنسان والحيوان.. فكيف بها بين الإنسان والإنسان؟

(٤٤) المائدة ٣١

ونعرف قيمة ذلك التعاطف الوجداني مع عالم النمل الصغير بمجرد أن نتذكر القدرات الضخمة، والإمكانات الواسعة، التي سخرت لسليمان في عالمه الكبير.

ومن عهد سليمان نفسه.. يعلمنا الحيوان.. حكمة أخرى، تهزّنا بعنف، وتفتح أعيننا جيداً على الجانب الآخر من (الوضع) البشري الذي يتوجب علينا أن نراه: ﴿ولسليمان الريح، غدوها شهر ورواحها شهر، وَأَسَلْنا له عين القطر، ومن الجن من يعمل بين يديه - بإذن ربه - ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء، من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب، وقدور راسيات، اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور. فلما قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته، فلما خرّ، تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ (٤٥).

إن هذا النبي، الذي سخر الله له هذه الطاقات الكبيرة وحشرها لخدمته من أجل أن يبني ويعمر ويبدع ويبتكر ويتقدم بالحياة صعداً على طريق الخلافة المسؤولة، المؤمنة، التي لا ينحرف بها هذا النعيم الكبير عن التوجه بالشكر للخلاق

---

(٤٥) سبأ ١٢ - ١٤

العظيم.. هذا النبي ما يلبث أن ينتهي به المطاف إلى الموت.. إنه بانتظار الجميع، عمالقة كانوا أم أقزاماً، ملوكاً أم فقراء.. وإن على بني آدم، أياً كان موقعهم، أن يتذكروا هذا، لأن الرجل النبي الذي سخرت له طاقات العالم ينتهي به الأمر هو الآخر إلى الموت، ثم ما تلبث الديدان، أقذر الحشرات وأحطها، أن تأكل منه!

وكما لفت القرآن أنظارنا إلى عالم النمل، فإنه يقفنا - كذلك - عند عالم النحل الذي لا يقل إبداعاً في الصنع والسلوك.. وإعجازاً في الغريزة الفذة التي أودعها الله في كليهما ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذُلُلاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون﴾[٤٦].

ولقد قيل كثيراً، وكتب كثيراً عن الجانب المنفعي للشراب الذي يشفي الناس.. مقالات وأبحاث وموسوعات يتبيّن القارىء البصير من خلالها البعد الحقيقي لما يقوله القرآن..

لكن الأمر لا يقف عند هذا .. إن النمل والنحل

(٤٦) النحل ٦٨ - ٦٩

بسلوكهما الفذ المرسوم، بإنجازهما المهندس العجيب، بدأبهما اللافح الصبور.. يعلمانا كيف يتوجب أن يكون الجهد البشري: فذاً، مرسوماً، مهندساً، وصبوراً، إذا ما أريد لبني آدم أن يحيوا حياة طيبة.. ذلك هو الجانب الايجابي لتعاليم هذين العالمين.. ولكن هناك جانب سلبي، أغلب الظن أنه أهم بكثير.

إذا كان الالتصاق بالأرض وتنظيمها من أجل تحقيق أكبر قدر من ضمانات الإشباع مأكلاً ومسكناً وملبساً وجنساً، هو الهدف الأوحد للحياة، فإن النمل والنحل ودود القز ستغدو ولا شك أذكى المخلوقات لأنها تعرف بغريزتها - التي أودعها الله فيها - كيف تحقق هذه الضمانات بأكبر قدر من الجهد والتنظيم والإنجاز..

ومن منا لا يعرف قدرة هذه الحشرات الثلاث على الإنتاج، وتنظيم العمل، والبناء؟ لكن الحياة البشرية ليست إشباعاً للضرورات فحسب، إن هذه مسألة مفروغ منها، متفق عليها بين كافة الذين يريدون معالجة هذه الحياة بشكل واقعي جاد.. إلا أن هنالك أيضاً أهدافاً أخرى وراء هذه الحدود الدنيا من الإشباع والتطمين على الضروريات.. هنالك القيم والمثل والمبادىء والعواطف والوجدانيات والأشواق والمطامح الدينية والجمالية والأخلاقية..

إن الروح البشري يحن دوماً إلى الإشباع هو الآخر، والنفس البشرية تميل دوماً الى تحقيق منازعها والاستجابة لدوافعها التي تتجاوز حدود الجنس والطعام والشراب.

وإذا كان التنظيم المادي الذي تشاركنا فيه أصغر الحشرات، لحكمة يعلمها الله!! يمثل الجانب (المدني) من الحضارات البشرية، فإن هنالك جانباً لا يقل أهمية وخطورة، إن لم يفقه بكثير، ذلك هو الجانب (الثقافي) من الحضارات، بكل ما يتضمنه من قيم ومبادىء ومنازع تتجاوز نطاق التعامل المباشر مع التراب..

وهذا الجانب هو الذي يمنح الحضارات لونها وشكلها ويهبها شخصيتها المستقلة.. وبذا يتنوع التاريخ البشري، ويتألق، بالتغاير والاحتكاك..

ماذا لو جعلت الحضارات البشرية همها الأول والأخير إنتاج مقادير أكبر من الطعام، وبناء مجمعات سكنية أكثر، ونسج مساحات أوسع من القماش؟ أيمكن أن يكون هناك تمايز حضاري على الاطلاق؟

سيكون هناك تغاير كمي فحسب.. هذه الأمة تنتج حنطة وشعيراً أقل من تلك بنسبة خمس وثلاثين بالمائة.. وتلك الأمة تقذف إلى الأسواق بمنسوجات تفوق الأمة

المجاورة بنسبة خمسين بالمائة.. وهذا الشعب يبني في السنة الواحدة عشرين مجمعاً سكنياً. بينما لا ينجز جاره أكثر من ثمانية مجمعات!!

ليس ثمة تغاير أصيل في شخصية الحضارة. في لونها وطعمها ورائحتها.. وماذا تكون قيمة التاريخ البشري لو افتقد هذا التمايز الحضاري الأصيل؟

إن الذي ميز الشرق عن الغرب. والهند عن الصين. وعالم الإسلام عن عالم المسيحية أو المادية أو البوذية. ليس مقدار ما تبنيه أو تنجزه وتنسجه.. ولكن كيف تحب كلّ أمة من هذه الأمم. كيف تصلي وتصوم وتعبد الله.. كيف تكتب أشعارها وقصائدها وفلسفاتها.. وكيف تفكر في المصير..

إن الاهتمامات الكبيرة هي تلك التي تتجاوز شد الأرض وضروراتها. على قوة هذا الشدّ وثقل هذه الضرورات وأهميتها القصوى.. تتجاوز إلى الآفاق الرحيبة.. الممتدة.. التي جاءت الأديان. على وجه الخصوص. لكي تقود بني آدم إليها بعد أن تحرّرهم من شد الضرورات وتضع عنهم اصرهم والاغلال..

وبدون هذه الحرية التي يمنحنا إياها الدين. سوف لن نفعل بأكثر مما تفعله دودة القز وهي تنسج الحرير. ومجتمعات

النمل وهي تخزن الغلال لأيام الشتاء، وممالك النحل وهي تبني خلاياها وفق هندسة معمارية غاية في الإتقان!!

(٦)

ولكثافة القيم والتعاليم التي يمنحها عالم الحيوان.. لقدرتها على التأثير بسبب من كونها تعتمد نماذج سلوكية منظورة.. لهذا وذاك يعتمد كتاب الله بعض معطيات هذا العالم فيضرب بها الأمثال... ولقد كانت الأمثال، ولا تزال، وسيلة من أبرع وسائل التربية والتعليم، وأشدها تأثيراً..

﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه. فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾[٤٧]

﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾[٤٨]

---

(٤٧) الأعراف ١٧٥ - ١٧٦

(٤٨) العنكبوت ٤١

﴿مثل الذين حُمِّلوا التوراة، ثم لم يحملوها. كمثل الحمار يحمل أسفاراً، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله. والله لا يهدي القوم الظالمين﴾[49]

﴿فما لهم عن التذكرة معرضين، كأنهم حمر مستنفرة. فرّت من قَسْوَرَة؟﴾[50]

وهي أمثلة ترسم نفسها بريشة القرآن المبدعة فلا تحتاج إلى تفسير.. الذين ينسلخون عن آيات الله ويخلدون إلى الأرض يلهثون كما تلهث الكلاب. حُمّلت أم تركت.. الذين يتولون عبيداً مثلهم ويتخذونهم آلهة وطواغيت.. يفكرون لهم ويشرعون، وهم مطمئنون إلى متانة الاركان.. إن يتخذون إلا بيوتاً هشة كبيوت العنكبوت، وهل أسهل على الريح. أو على قبضة يد بشرية، أن تكتسح - وهي تمر - بيوتاً كهذه؟.. الذين الزموا حكم التوراة وتعاليمها. فلم يأخذوا بها. ولم يتمثلوها في فكرهم وأخلاقهم وسلوكهم. واكتفوا بحملها على ظهورهم متباهين. أيعدو أحدهم أن يكون حماراً، يحمل أسفاراً؟ وهل يفقه الحمار، أو يتمثل مما يحمله شيئاً؟!.. الذين يهربون من نداء الحق الذي يسعى جاهداً لتذكيرهم بحقيقة

---

(٤٩) الجمعة ٥

(٥٠) المدثر ٤٩ - ٥١

دورهم في الأرض، وبما يتوجب عليهم أن يفعلوه حتى يكونوا جديرين بحياتهم البشرية حقاً.. أليسوا حمراً وحشية نافرة، يدهم أسدٌ مفترس قطعانها على حين غفلة، فتهرب من بين يديه لا تلوي على شيء؟!

إنها أمثلة ترسم نفسها بريشة القرآن المبدعة فلا تحتاج الى تفسير.. لكن المثل الأكبر والأخطر الذي يريد الله سبحانه أن يضربه لنا من عالم الحيوان.. هو في معجزة الخلق نفسها، هنالك حيث لا يعرف أحد، غير الله وحده، سرّ الخلق ومفتاح الحياة.. ﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً، وما يضل به إلا الفاسقين﴾[٥١].

والقرآن الكريم يتعمد أن يختار أصغر الحشرات، وأحطها شأناً، لكي يضرب بها المثل، ويتحدى طواغيت بني آدم، وآلهتها، وأربابها، أن يخلقوا مثلها: البعوض.. والذباب.. إنه يذهب في تجسيم التناقض، وفق الأسلوب الكاريكاتيري، الى حدّه الأقصى، لكي يهز الناس ويضحكهم في الوقت نفسه ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له، ان الذين تدعون من دون

---

(٥١) البقرة ٢٦

الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب﴾[٥٢].

فها هنا يطرح القرآن نداءه المتحدّي. الساخر: أيها الأرباب الذين رفعوا قاماتهم إلى السماء، يريدون أن يخرقوا الأرض وأن يبلغوا الجبال طولا.. ايتها الآلهة التي ورمت غروراً فجاوزت حجمها الحقيقي مئات المرات.. أيها الوضّاعون الذين يحتكرون المعرفة العليا لأنفسهم فيفكرون للناس ويشرعون لهم.. ها أنا ذا أتحداكم.. أن تخلقوا بعوضاً أو ذباباً.. أكثر من ذلك، أتحداكم أن تستردوا هباءة تافهة سلبكم الذباب إياها..

أيها الأرباب.. أيتها الآلهة.. أيها الوضّاعون.. اخلقوا إن استطعتم - مجتمعين - ذباباً، استردوا منه ما سلبكم إياه.. ضعف الطالب، أيها الأرباب، والمطلوب.. ضعف الطالب والمطلوب..

إن القرآن الكريم، ها هنا، لا يضحكنا فحسب. ولكنه يبكينا.. يقيناً إنه ينتزع الدموع من أعيننا..

---

(٥٢) الحج ٧٣

ونعرف، ونحن نتقلب بين الضحك والبكاء، لماذا اختار الله، جل وعلا، أن يتحدى الآلهة والأرباب.. بالبعوض والذباب!!

رحلة مع دنيا النبات في كتاب الله...

من أكثر من زاوية يتعامل القرآن الكريم مع عالم النبات ذي الخلق المعجز، والمعاني المتدفقة، والقيم التي لا تكف عن التمخّض والعطاء.. يحدثنا - حيناً - ومن خلال هذا العالم عن الموت والحياة والفناء والخلود.. والانكماش والانتشار.. والتلاشي والانبعاث.. وينقلنا حيناً آخر الى ملامح الإعجاز والابداع فيه.. تفجير الحياة من قلب التربة الميتة.. وتنويع العطاء الذي يُسقَى بماء واحد.. وحيناً ثالثاً يحكي لنا عن منافع هذا العالم وتغطيته للضرورات.. دون أن ينسى الجانب الآخر: الجمال والتناغم والإلفة الميتافيزيقية بين خلائق الله.. وينتقل في مجموعات أخرى من الآيات البينات لكي يضرب به الأمثال، ولكي يحكي لنا - كذلك - عن مصائر أقوام وجماعات لم يكن تعاملهم مع هذا العالم سواء.. وعن اشياء كثيرة أخرى..

فلنبدأ الرحلة الطيبة، وليكن مرورنا سريعاً كي لا يطول بنا السرى..

(١)

إن أبرز ما يجابه الانسان وهو يقلب ناظريه في حدائق الله المخضرة في العالم، هو تقلبها السريع بين الحياة والموت.. إنبثاقها من قلب التربة.. خفيفة.. رشيقة.. إخضرارها وزهوها ثم تيبّسها وذبولها.. لكي ما تلبث أن تغدو حطاماً..

ليس ثمة رحلة بين الانبعاث والفناء أسرع من هذه.. صحيح أنها تؤدي مهمتها المرسومة في العالم منفعة وجمالاً.. ولكنها تظل تحمل ما هو أكبر من المنفعة والجمال.. إنها (العبرة) التي تنطق بها هذه الرحلة ذات التحول الدرامي السريع بين الحياة والموت..

والحياة البشرية، في نهاية التحليل، لا تعدو أن تكون المعادل الانساني لعالم النبات.. إن الانسان يخرج من رحم أمهِ. لكي ما يلبث، بعد رحلة تطول أو تقصر، أن يذبل ويتيبّس ويغيّب ثانية في قلب التراب.. واذا كان كثير من الناس، سيما في عهود تألقهم فرادى أو مجتمعين.. على المستوى الخاص أو في دائرة الإبداع الحضاري الشامل.. اذا كان كثير من الناس ينسون البدء والمنتهى.. المنبع والمصب.. الرحم والقبر.. فإن

الحقيقة تبقى أكبر من النسيان بكثير.. إنهم يرحلون بين الطرفين.. وإن عليهم أن يتذكروا - دائماً - المسافة الحقيقية التي أتيح لهم أن يقطعوها بين الحياة والموت.. هذهِ الذكرى الضرورية التي تحميهم من ورم الغرور والاستعلاء اللذين يقودان الى الكفر والفسوق والطغيان..

ولكن النسيان قائم.. والانسان بحاجة الى من يهزهُ بعنف لكي يفتح بصيرته المغلقة على الحقائق، وقلبه المطمور على المصير.. وما أحرى بعالم النبات، في عرضهِ الدرامي ذاك، أن يحدث الهزة المرجوة، ويعيد الذاكرة الى الانسان:

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناهُ من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والانعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها، اتاها امرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس، كذلك نفصل الآياتِ لقومٍ يتفكرون﴾[1]. ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾[2].

(١) يونس ٢٤

(٢) الكهف ٤٥

﴿... ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه. ثم يهيج فتراهُ مصفراً. ثم يجعلـهُ حطامـاً. إن في ذلـك لذكرى لأولي الألباب﴾[3].

﴿.. كمثل غيث أعجب الكفار نباتهُ. ثم يهيج فتراهُ مصفراً. ثم يكون حطاماً..﴾[4]. ﴿والذي أخرج المرعى فجعله غُثاءً أحوى﴾[5].

وفي هذهِ الآية الاخيرة تختزل المسافة اختزالاً.. فلا يتبقى بين الانبعاث والتحطّم ايما فاصل.. الخروج والذبول.. ليس ثمة فاصل على الاطلاق.. وتلك طريقة القرآن الكريم المؤثرة في تصوير القيم والمعاني.. ها هنا.. إزاء حقيقة الفناء والتحطّم التي تلف الحياة والخلائق. تصغّر المسافة المنظورة بين الوجود والمصير.. تصغّر الى الحد الذي تكاد لا ترى فيه. من أجل الا تترك على مدى الرؤية. وشاشتها الممتدة في الأفق من أقصاه الى أقصاه. سوى منظر واحد.. الفناء الذي يكتسح الحياة!!

فإذا كان ذلك كذلك. فما أحرى الإنسان أن يقف عند حدهِ.. ما أحرى الجماعات البشرية أن تعرف حجمها

---

(٣) الزمر ٢١

(٤) الحديد ٢٠

(٥) الأعلى ٤ - ٥

الحقيقي.. ولو تعلمنا من النبات هذهِ الحقيقة فوقف كل منا عند حدهِ. وعرفت كل جماعة حجمها الحقيقي. لعرفنا كيف نجعل تجربتنا في هذا العالم الفاني مخضرة حقاً!!

(٢)

والقرآن الكريم. شأنه دائماً. لا يقف عند الوجه الواحد للصورة. فهناك أوجه أخرى. وهو يدور حولها جميعاً لكي يخرجها لنا بفانوسهِ السحري. صوراً متحركة على شاشة العالم. وملونة أيضاً!!

الفناء والتحطم.. نعم.. ولكن هنالك أيضاً الانبعاث. والتماسك والحياة.. إنها رحلة التجدد والاخضرار.. فليس ثمة في هذا العالم سوى (الحركة) التي يبعثها الله سبحانهُ في امداء الكون فتــــدور الكواكـــب والنجوم والسدم والشموس والمجرات.. وتتجاذب.. وهي تسبح بحمد الله.. وينشرها الله في قلب التربة فتخضر وتزهو وهي تسبح بحمد الله..

وإذا كانت دراما الفناء الخاطف السريع تعلمنا كثيراً.. تبصرنا بمواقع خطواتنا في الأرض.. فإن معجزة الخلق المفاجيء. تعلمنا كثيراً هي الأخرى.. وتبصرنا كثيراً..

﴿إن الله فالقُ الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج

الميت من الحي﴾[٦].

﴿..سقناه لبلدٍ ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمراتِ كذلك نخرج الموتى لعلكم تَذَكَّرون﴾[٧].

﴿والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيةً لقوم يسمعون﴾[٨].

﴿... وترى الارض هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾[٩].

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة إن الله لطيف خبير﴾[١٠].

﴿ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماء فأحيا به الارض من بعد موتها؟ ليقولن اللهُ. قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾[١١].

﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً

---

(٦) الأنعام ٩٥
(٧) الأعراف ٥٧
(٨) النحل ٦٥
(٩) الحج ٥
(١٠) الحج ٦٣
(١١) العنكبوت ٦٣

فمنهُ يأكلون. وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعنابٍ وفجرنا فيها من العيون. ليأكلوا من ثمرهِ وما عملتهُ أيديهم أفلا يشكرون﴾[١٢].

﴿اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآياتِ لعلكم تعقلون﴾[١٣].

﴿ومن آياتهِ أنك ترى الأرضَ خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنهُ على كل شيء قدير﴾[١٤].

ها هنا يلفت القرآن أنظارنا إلى أشد الحقائق ثقلاً وتواجداً في قلب العالم: بعث الحياة من أعماق التربة الميتة... وإذا كانت مشيئة الله المطلقة قادرة على تحقيق هذا الفعل المشهود في كل لحظة من الزمن وفي كل شبر من العالم.. افتعجز - وحاشاها - عن تحقيق الفعل نفسه على مستوى الحياة الانسانية نفسها؟ ولماذا؟!

ذلك ما يعلمنا إياه القرآن. وهو يشير بكلتا يديه الى عالم النبات الأخضر. المتفجر حياة.. يشير بكلتا يديه لكي يضع

---

(١٢) ياسين ٣٣ - ٣٥
(١٣) الحديد ١٧
(١٤) فصلت ٣٩

الوجــدان البشري بمواجهــة الحقائــق العاريــة، المؤثرة، المنظورة... بلا جدل ولا تعقيد ولا أغاميض مما تمارسهُ المدارس الدينية والوضعية.. ولا أقول الاديان!!

وحقيقة أخرى لا تقل أهمية نتعلمها من رحلة النبات بين معجزة الخلق ومأساة الفناء. حقيقة ذات بعد حضاري.. إذا كانت الحقيقة الاولى ذات بعد وجودي.. فما دام عالم النبات يقدم لنا، بإرادة الله، ورعايتهِ، هذا النموذج المشهود على التجدد الدائم.. الانبعاث المستمر.. التواصل الذي لا يعرف توقفاً أو انقطاعاً.. فلا معنى لليأس من الحياة، للقعود ساكنين بانتظار نازلة الموت والتحطم... ما دام الله سبحانه قد منح الخلائق كلها قدرة فذة على التجدد والتواصل والديمومة والاستمرار. فليس ثمة يأس على الاطلاق.. والفناء نفسهُ يبدو ضرورة لصيرورة الحياة.. والابداع..

إن الافراد تقصم ظهورهم النوازل.. والأمم والجماعات، تنزل بها المحن ونكسرها الضربات ولكن يبقى وراء هذا كلهِ، قدرة الافراد على الاستمرار، وقدرة الحضارات على المسير.. أكثر من هذا.. إن النوازل والضربات تغدو بمثابة تحديات تستثير في قعر الحياة أقصى قدراتها على الدفع والتدفق والردّ والمقاومة والاستمرار..

ولقد تحدث كثير من الفلاسفة والمؤرخين، يقف شپنغلر على رأسهم ولا ريب، عن تواجد هذا القدر المشترك بين الحضارات البشرية وعوالم النبات.. في معجزة الخلق.. في صعود المنحنى الصعب.. في الانحدار صوب الأفول.. والتحطم.. والفناء.. ثم في الانبعاث مرة أخرى.. إن تاريخ بني آدم، يقول هؤلاء، يمر بنفس المراحل الدورية التي يجتازها عالم النبات.. وسواء صحّت مقالتهم تلك، أم لم تصحّ، فإن ثمة قدراً من التشابه، يندّ عن التطابق الهندسي إذا أردنا الدقة. يربط بين خلائق الله جميعاً.. الانسان.. والحيوان.. والنبات..

إن المشاهد التي ينقلها إلينا القرآن، أو ينقلنا إليها بالأحرى، تعلمنا كثيراً: إن على مستوى الفكر والعقيدة والروح.. أو على مستوى الحضارة والتاريخ..

(٣)

والقرآن الكريم يعتمد هذا التقابل المتناظر بين العالمين لكي يضرب بدنيا النبات الامثال، فيمنحنا - بذلك - المزيد من التعاليم الحية والمؤثرة مما نشهدهُ في هذا العالم الطريف..

عطاء المنافقين وعطاء المؤمنين.. هذا كأرض صخرية

مغطاة بطبقة رقيقة زائفة من التراب لا يزيدها المطر الا تعرية وقفراً.. وهذا روابِ خصبة واعدة يعينها المطر على المزيد من التدفق.. والمنح.. ﴿.. فمثلهُ كمثل صفوان عليه تراب فأصابهُ وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا. والله لا يهدي القوم الكافرين. ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابلٌ فآتت أُكُلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل. والله بما تعملون بصير﴾[(١٥)].

الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة.. هذهِ تزهو وتسمق وتمنح دائماً.. وتلك كومة من أعجاز خاوية لاجذور لها في الأرض ولا تمنح شيئاً.. والكلمة (فعل) والتزام ومسؤولية.. ومن ثم نعرف كيف يكون مردود هذا الفرق الحاسم بين الطيب والخبيث في مواقف الانسان وفي تاريخه على السواء.. ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء/ تؤتي أُكُلها كل حينٍ بإذن ربِّها؟ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ومثل كلمة خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار﴾[(١٦)].

---

(١٥) البقرة ٢٦٤ - ٢٦٥

(١٦) إبراهيم ٢٤ - ٢٦

وثمة (القطة) مشابهة ولكن الضوء مسلط ها هنا على الجماعة.. وكان هناك مسلط على الكلمة!! والأمر سواء: ﴿والبلد الطيب يخرج نباتهُ بإذن ربهِ والذي خبث لا يخرج الا نكداً كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون﴾[١٧].

وحركات الإيمان في العالم التي جاء الأنبياء عليهم السلام لكي ينظموها وينطلقوا بها لتغيير العالم. كانت تبدأ دائماً بداية بسيطة، ضعيفة.. قلّة محاصرة وسط أكثريات ساحقة تسعى لتدميرها، ولكن ما تلبث - بإرادة الله - أن تستوي على سوقها وأن تأخذ الزمام وتتحكم في التاريخ.. وليس أروع من الزرع مثلاً لهذا النمو الجريء الذي يبدأ ضعيفاً هشاً ثم ينتهي إلى الرسوخ في أعماق النفس والعالم.. ومن ثم يصف القرآن الكريم المؤمنين بأن ﴿.. مَثَلُهُم في الانجيل كزرع أخرج شَطْأَه فآزرهُ فاستغلظ فاستوى على سوقهِ يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار..﴾[١٨].

أما اعتماد القرآن الكريم عالم النبات للتمثيل به على صيرورة الحياة الدنيا وفنائها. فقد وقفنا عند نماذج لهُ قبل قليل..

---

(١٧) الأعراف ٥٨ (١٨) الفتح ٢٩

(٤)

وما يلبث القرآن الكريم أن يقف بنا عند عدد من الوقائع التاريخية لكي يحدثنا عن مصائر أفراد وجماعات لم تحسن التعامل مع دنيا النبات.. هذه المنحة الإلهية الفذة التي لا يصنعها الا الله ولا يستردها إلاّه.. افراد وجماعات شتى.. تحدّت احداها ارادة الله:

﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً. كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منهُ شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً. وكان لهُ ثمر فقال لصاحبهِ وهو يحاورهُ: أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً. ودخل جنتهُ وهو ظالم لنفسهِ قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً. قال لهُ صاحبهُ وهو يحاورهُ: أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفةٍ ثم سواك رجلاً؟ لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً. ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله إن تَرَن أنا أقل منك مالاً وولداً. فعسى ربي أن يؤتيَنِ خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً. أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع لهُ طلباً. وأحيط بثمرهِ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاويةٌ على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً.

ولم تكن لهُ فئةٌ ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً. هنالك الولاية لله الحق هو خيرٌ ثواباً وخيرٌ عقبا﴾[19].

وأعرضت ثانيتها عن هديه: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آيةٌ جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا لهُ بلدةٌ طيبةٌ ورب غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أُكُلٍ خمط وأثل وشيء من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور؟﴾[20].

ورفضت ثالثتها الوفاء بحقهِ عليها.. بطراً وغروراً: ﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذْ أقسموا ليصرِمُنَّها مصبحين. ولا يستثنون. فطاف عليها طائفٌ من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حردٍ قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل نحن محرومون. قال أوسطهم: ألم أقل لكم لولا تسبحون؟ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا: يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون.

---

(١٩) الكهف ٣٢ - ٤٤ (٢٠) سبأ ١٥ - ٧

كذلك العذاب ولَعذابُ الآخرةِ أكبر لو كانوا يعلمون﴾[٢١].

والقرآن الكريم يجرد هذهِ الوقائع من أحد بعديها التاريخيين، أو كليهما: الزمان والمكان، لكي تظل تحمل مهمتها التوجيهية التي تتجاوز نطاق العرض التاريخي الى الافاق الممتدة، والخاص الى العام. ومن ثم فإنها تلتقي بالامثال التي يضربها القرآن في الهدف الذي تتوخاه..

(٥)

ومن موقف وسطي شامل، ينظر الى الصورة من كافة أطرافها. يحدثنا القرآن عن جانبي هذا العالم: المنفعة والجمال.. الضرورة والحرية.. إن عالم النبات يغطي بعطائه الزاخر السخي حاجات بني آدم المادية ومطامحهم الروحية على السواء.. والقرآن الكريم يشير الى هذا وذاك فهو يعرض في أكثر من موضع لأهمية النبات القصوى كمادة ضرورية للحياة البشرية: طعاماً وتدفئة ولباساً. ويدعو بني آدم الى الإفادة من هذه المنحة الإلّهية لإشباع ضروراتهم:

﴿وظللنا عليكم الغمام. وأنزلنا عليكم المن والسلوى. كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾[٢٢].

---

(٢١) القلم ١٧ - ٣٣

(٢٢) البقرة ٥٧

﴿.. والنخل والزرع مختلفاً أُكُلُهُ، والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه، كلوا من ثمرهِ إذا أثمر﴾[٢٣].

﴿ليأكلوا من ثمرهِ وما عملتهُ أيديهم أفلا يشكرون؟﴾[٢٤].

﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منهُ توقدون﴾[٢٥].

﴿أفرأيتم النار التي تورون؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾[٢٦].

﴿فأنشأنا لكم به جناتٍ من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون﴾[٢٧].

﴿ومن ثمراتِ النخيل والاعناب تتخذون منهُ سَكَراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾[٢٨].

ولكنه لا يقف عند هذا الجانب وحدهُ بل يتجاوزه الى الوجه الجمالي لعالم النبات.. وهل أقدر من هذا العالم على منح الحياة وجهها الجميل؟ هل أقدر منهُ على وضع (الديكور) الباهر على واجهة العالم، وتلوينه وتزيينه؟ إن الخضرة هي بحد ذاتها (جمالاً خالصاً) أرادت بها يد الله المبدعة أن تزين

---

(٢٣) الأنعام ١٤١
(٢٤) ياسين ٣٥
(٢٥) ياسين ٨٠
(٢٦) الواقعة ٧١ - ٧٢
(٢٧) المؤمنون ١٩
(٢٨) النحل ٦٧

هذا الوجود.. وحتى صنوف النبات الأخرى التي تحمل الثمر للناس، تتزين هي الأخرى وتسهم في إغناء هذا المهرجان المفتون.. إنها عملة ذات وجهين. الضرورة.. نعم.. ولكن لا بد من الجمال مع الضرورة.. فهذا هو أحد الملامح الاساسية التي تميز بني آدم عن من دونهم من الخلائق: الاحساس بالجمال والتشوف اليه:

﴿وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها..﴾[٢٩].

﴿.. وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾[٣٠].

﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا بهِ جناتٍ وحب الحصيد. والنخل باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد﴾[٣١].

﴿ فيها فاكهةٌ والنخل ذاتُ الاكمام. والحب ذو العصف والريحان﴾[٣٢].

﴿لنخرج به حباً ونباتا. وجناتٍ ألفافا﴾[٣٣].

﴿وهو الذي أنشأ جناتٍ معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكلهُ والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه﴾[٣٤].

---

(٢٩) النحل ٦٠

(٣٠) ق ٧

(٣١) ق ٩ - ١٠

(٣٢) الرحمن ١٠ - ١٢

(٣٣) النبأ ١٥ - ١٦

(٣٤) الأنعام ١٤١

﴿وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانهُ إن في ذلك لآية لقوم يَذّكَرون﴾[35].

﴿وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نباتَ كل شيء فأخرجنا منه خضِراً نخرج منهُ حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعنابٍ والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه. انظروا الى ثمرهِ اذا أثمر وينعهِ. إن في ذلكم لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾[36].

(٦)

وثمة لمحات عن معجزة الخلق. يوجه القرآن الكريم الافئدة والانظار إليها. وهو يحكي لنا عن دنيا النبات.. لمحات ترينا يد الله القديرة المبدعة وهي تفجّر التربة بالحياة.. ومن التربة الواحدة وبالماء الواحد تخرج لنا مهرجاناً من الاشجار والأثمار والأزهار، مختلفة في طعومها. متغايرة في ألوانها. متباينة في أشكالها وأحجامها وتراكيبها.. التربة واحدة.. والماء واحد.. ولكن الابداع الإلهي ينصب عليهما فيصنع بهما مهرجاناً من الأشكال والألوان..

---

(٣٥) النحل ١٣
(٣٦) الأنعام ٩٩

﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا بهِ نبات كل شيء﴾[٣٧].

﴿الله الذي خلق السماوات والارض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمراتِ رزقاً لكم﴾[٣٨].

﴿وفي الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماءٍ واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل. إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون﴾[٣٩].

﴿والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون﴾[٤٠].

﴿وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانهُ إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يذّكرون﴾[٤١].

﴿وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾[٤٢].

﴿أو لم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجُرُز فنخرج به زرعاً

---

(٣٧) الأنعام ٩٩

(٣٨) إبراهيم ٣٢

(٣٩) الرعد ٣ – ٤

(٤٠) النحل ١٠ – ١١

(٤١) النحل ١٣

(٤٢) طه ٥٣

تأكل منهُ أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون؟﴾[٤٣].
﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء الماء فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها؟﴾[٤٤].
﴿وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنهُ يأكلون. وجعلنا فيها جناتٍ من نخيل وأعنابٍ وفجرنا فيها من العيون﴾[٤٥].

ولمحات أخرى لم يكشف العلم عن بعض أبعادها الا أخيراً.. لمحات عن التركيب الزوجي في دنيا النبات. إن القرآن الكريم يحكي لنا عن سر التكاثر في هذا العالم الأخضر.. الجميل:
﴿وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً. ومن كل الثمراتِ جعل فيها زوجين اثنين﴾[٤٦].
﴿وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتى﴾[٤٧].

﴿وترى الارض هامدةً فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾[٤٨].

---

(٤٣) السجدة ٢٧
(٤٤) فاطر ٢٧
(٤٥) ياسين ٣٣ - ٣٤
(٤٦) الرعد ٣
(٤٧) طه ٥٣
(٤٨) الحج ٥

﴿أوَلَمْ يروا إلى الارض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم؟﴾[٤٩].

﴿والذي خلق الأزواج كلها..﴾[٥٠].

﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الارضُ ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾[٥١].

﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾[٥٢].

ولمحة عن التمثيل الغذائي ﴿الكلوروفيلي﴾.. إن القرآن كما يحدثنا عن سرّ التكاثر، يحدثنا كذلك عن سر الزهو والنمو في دنيا النبات، وإنها لإشارة معجزة حقاً إلى مادة الكلوروفيل الخضراء التي تصنع الغذاء وتخرج الحب ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منهُ خَضِراً نخرج منهُ حباً متراكباً﴾[٥٣].

وثالثة عن التقدير المحكم في توزيع النباتات في الأرض، ونسب عطائها.. لقد تحدث علماء النبات كثيراً عن هذا

---

(٤٩) الشعراء ٧ وانظر لقمان ١٠

(٥٠) الزخرف ١٢

(٥١) ياسين ٣٦

(٥٢) الذاريات ٤٩

(٥٣) الأنعام ٩٩

التدبير ﴿الموزون﴾ الذي يتيح - اذا صح التعبير - تعايشاً سلمياً بين النباتات، ويحقق - بكلمة أدق - نوعاً من الوفاق التكاملي الذي يخدم الحاجات البشرية ويعين الطبيعة على مواصلة مهمتها.. ونقرأ في كتاب الله:

﴿والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم لهُ برازقين. وان من شيء الا عندنا خزائنهُ وما نُنزله الا بقدر معلوم﴾(٥٤).

﴿ما يفتح الله للناس من رحمةٍ فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل لهُ من بعدهِ وهو العزيز الحكيم. يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غيرُ الله يرزقكم من السماء والارض؟﴾(٥٥).

﴿وما تخرج من ثمراتٍ من أكمامها، وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمهِ..﴾(٥٦).

(٧)

والآية الاخيرة تنقلنا الى الحضور الإلٓهي الدائم في مدى

---

(٥٤) الحجر ١٩ - ٢٠

(٥٥) فاطر ٣

(٥٦) فصلت ٤٧

الكون وأرجاء العالم.. ها هنا نعاين الحضور الكريم في دنيا النبات.. الحضور الذي يدبر ويقدر ويرى.. فلا يفلت منهُ شيء ولا يندّ عنهُ شيء.. ما من ثمرة تنشق عنها الأكمام.. ما من ورقةٍ تسقط.. ما من رطب ولا يابس.. ما من حبةٍ تنساب وتختبىء تحت صخرة في ظلمات الارض.. إلا وهي في مدى هذا الحضور:

﴿يا بني إنها إن تَكُ مثقال حبةٍ من خردل فتكن في صخرةٍ أو في السموات أو في الارض يأتِ بها الله..﴾[57].

﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر. وما تسقط من ورقةٍ الا يعلمها. ولا حبةٍ في ظلمات الارض. ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين﴾[58].

إن الله جلّ وعلا هو خالق هذهِ الدنيا. وباعث نباتها من قلب التربة الصّماء.. هو الذي مكّن غصون الأشجار من تقديم الطعام. وجذوعها من إشعال النار.. هو الذي يمنح النبتة حيويتها المخضوضرة. أو يسلبها إياها فتتيبس وتصفرّ وتغدو حُطاماً.. إن الله سبحانهُ هو الحارث والزارع..وهو الحاصد والموزع:

---

(٥٧) لقمان ١٦

(٥٨) الأنعام٥٩

﴿قل من يرزقكم من السماواتِ والارض؟ قل الله..﴾[٥٩].
﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منهُ توقدون﴾[٦٠]
﴿أفرأيتم ما تحرثون؟ أأنتم تزرعونهُ أم نحن الزارعون؟ لو نشاء لجعلناهُ حُطاماً فظلتم تفكّهون. إنا لمغرمون. بل نحن محرمون﴾[٦١].
﴿أفرأيتم النار التي تورون؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين﴾[٦٢].

ثم ها هي كلمات الله تضعنا وجهاً لوجه أمام هذا الحضور في عملية الإنبات من بدئها حتى منتهاها.. الحضور الذي يُنزل الماء ويشق الارض.. ويخرج للناس الحدائق والحبوب والأثمار: ﴿فلينظر الانسان الى طعامهِ. أنّا صببنا الماء صباً. ثم شققنا الارض شقاً. فأنبتنا فيها حباً. وعنباً وقضباً. وزيتوناً ونخلاً. وحدائق غلباً. وفاكهة وأباً. متاعاً لكم

---

(٥٩) سبأ ٢٤
(٦٠) ياسين ٨٠
(٦١) الواقعة ٦٣ - ٦٧
(٦٢) الواقعة ٧١ - ٧٣

ولأنعامكم..﴾[٦٣]

(٨)

﴿هذا خلق الله!! فأروني ماذا خلق الذين من دونهِ؟!﴾[٦٤] ...

---

(٦٣) عبس ٢٤ - ٣٢

(٦٤) لقمان ١١

فهرست


مطبعة العلوم
حارة حريك - لبنان